نماذج من جدال أولى العزم

مع أممهم

إعداد

الدكتورة / عفاف على النجار

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ـ جامعة الأزهر

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة ومطبعة الغد

للطبع والنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

صدق الله العظيم

سورة النحل الآية ١٢٥ .

المقدمة

الحمد لله رب العلمين الذى أنزل القرآن على لسان سيد الخلق أجمعين تبصرة وذكرى لأولى الألباب ٠

والصلاة والسلام على رسوله إمام الأنبياء سيدنا ومولانا محمد الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ٠

وبعد : فإن العقل البشرى يتطلع دائما إلى قوة الإقناع عن طريق الحجة والبرهان ٠ وكتاب الله الكريم معجزة خالدة لنبى الاسلام ﷺ يحاج العقل البشرى فى أرقى ما وصل إليه من العلم ويتحداه إلى الأبد ٠

وما إن دعا البشر إلى عقيدة التوحيد وقف الناس منه مواقف متباينة ، فكان يسلك معهم مسالك التوجيه والإرشاد ، ويعامل خصومه بما يتناسب وأحوالهم العلمية والاعتقادية ، فيجادل المشركين جدل هداية ودلالة ، بينما يجادل أهل الكتاب جدل تخطئة وإلزام لأنهم على علم ٠

ويأتى شديدا وقاسيا بل مصحوبا بالتهديد والوعيد عند جداله للمنافقين ، وما ذلك إلا لأنهم كانوا أعرف الناس بلغة العرب وبما جاء به الرسول الأعظم ﷺ من السمو البيانى ، فكانوا أكثر الأقوام وزرا وألزمهم حجة وأحقهم بالتهديد والتقريع ٠

هكذا وقف القرآن الكريم أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله . فألجم خصومتهم بالحس والعيان ، وعارضهم فى أسلوب مقنع ، واستدلال ملزم ، وجدل محكم .

والجدل فى اللغة هو : " اللدد فى الخصومة والقدرة عليها . يقال : جادلت الرجل فجدلته جدلا ، أى : غلبته . ورجل جدل إذا كان أقوى فى الخصام .

والجدل مقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة " [1] .

وفى الاصطلاح : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم .

وقد ذكره الله فى القرآن على أنه من طبيعة الإنسان فى قوله : ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا** ﴾ [2] أى : خصومة ومنازعة .

وأمر الرسول ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التى تلين عريكتهم فى قوله : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [3] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٠٥/١١ .

(٢) سورة الكهف الآية ٥٤ .

(٣) سورة النحل الآية ١٢٥ .

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (١).

ومثل هذا من قبيل المناظرة التى تهدف إلى إظهار الحق ، وإقامة البرهان على صحته ، وهى الطريقة التى اشتمل عليها جدل القرآن وساقها لهداية الكافرين وإلزام المعاندين فى جميع ما قصد إليه من تبيان الحقائق وترسيخها فى أذهان الناس .

وجدل القرآن موضوع حيوى ، لأنه يناجى العقل والضمير معا ، ويصور مواقف الصراع بين الحق والباطل فيعيش معه القارئ فى متعة وجدانية غامرة .

وقد ورد الجدل القرآنى على ثلاثة أوجه ، وهى :

١ ــ ما رد الله به على الخصوم من الحجج والبراهين ، وما ساقه من الأدلة لتثبت العقائد وتقرير قواعد الملة مما جاء على ألسنة رسله وأنبيائه وما ألهم الله به عباده الصالحين من قول بالحق ودفع للباطل .

وهذا جدل بالحق بل هو أمر ضرورى لتبليغ رسالة الله إلى أهل الأرض ودفع ما يواجهها من شبهات ، وإزالة ما يقف فى طريقها من عقبات ، وكشف ما يحاك ضدها من مؤامرات وما يدبر لها من كيد وضلال ، وهذا النوع من الجدل القرآنى وإن كان فيه معنى الإلزام والإفحام إلا أنه مشتمل على التوجيه والإرشاد إلى طريق الحق والصواب .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

وهكذا جدل الملائكة وجدال خولة بنت ثعلبة التـــى حكـــى الله قصتها فى سورة المجادلة ، ونحو ذلك مما يرجع إلى هذا المعنى ٠

٢ ـــ ما ورد فى القرآن بطريق الحوار ، والقصد منه الاسترشـــاد وحب الاستطلاع والنظـــر للعظـــة والاعتبـــار أو الـــترجى والدعاء ومن هذا القبيل جدل ابراهيم عليه السلام مـــع ربــه حين قال : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ (١).

٣ ـــ ما يأتى على ألســـنة الكفـــار مـــن الاعتراضـــات والشـــبه والدعاوى الباطلة التى حكاها القرآن الكريم وبين بطلانها وما تنطوى عليه من مفاسد ، وهذا يدخل تحـــت عنـــوان الجـــدل بالباطل كما قال تعالى : ﴿ **وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُـــوا بِـــهِ الْحَقَّ** ﴾ (٢).

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة ، كمناظرة الأنبياء مع أممـــهم وهذا ما سأبينه بمشيئة الله تعالى فى جدال أولى العزم مع أممهم ٠

فالنفس البشرية مجبولة على الدفاع عنـــها وتقريـــر مطالبـــها وإيضاح مقاصدها حتى فى مواقف القيامة فإنها لا تتخلى عن هـــذه النزعة الإنسانية كما فى قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـادِلُ عَنْ نَفْسِهَا** ﴾ (٣).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ ٠

(٢) سورة غافر الآية ٥ ٠

(٣) سورة النحل الآية ١١١ ٠

وكما ورد فى حديث عن النبى ﷺ أنه قال : " يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، واما العرضة الثالثة : فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله " (١).

إن هذه النزعة تتفاعل مع بعضها ومع العقول المتفاوتة والآراء المتباينة والمشارب المختلفة مما يكون له أثره الفعال فيما يجرى بين الناس من مجادلات ومناظرات فالجدال يعود بمعناه العام إلى نزعة البيان والافصاح المودوعة فطريا فى الإنسان وهو بتعبير آخر وسيلة إفصاح عما يجيش فى النفس من تأثرات وأحاسيس إما لإظهار مبدأ ، أو نصرة حق ، أو تصحيح خطأ أو توجيه مفهوم ، أو غير ذلك مما جلبت عليه النفوس البشرية ، وبأى دافع كان هذا الحوار الإنسانى فالجدل ضرورة حتمية فلا يقال إنه واجب ولا مكروه لأنه طبيعة وجبلة فى الفطرة الانسانية ﴿ **وكان الإنسان أكثر شئ جدلا** ﴾ (٢).

وإذا أردنا أن نعرف تاريخ الجدل ونشأته فإن القرآن الكريم أصدق سجل يروى لنا نماذج من جدل الأمم الغابرة منذ أن وجد

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه • كتاب صفة القيامة باب ما جاء فى العرض ٦١٧/٤ •

(٢) سورة الكهف الآية ٥٤ •

الانسان على هذه الأرض ، بل ومن قبل وجوده كما فى جدل الملائكة حول وجود آدم خليفة فى الأرض ، وجدال ابليس ٠

أولوا العزم من الرسل :

لقد اختار الله تعالى فريقا من البشر ، ليكونوا نموذجا للكمال وعنوانا للفضل ، وليكونوا هداة ومصلحين ، فاختارهم على علمه ، ورباهم على عينه فجعلهم أئمة الدنيا والدين قال تعالى : **﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾** (١)٠

هؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله هم " الأنبياء والرسل " الذين شرفهم الله بالنبوة ، وأعطاهم الحكمة ، ورزقهم قوة العقل ، وسداد الرأى ، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه ، يبلغونهم أوامر الله عز وجل ٠٠ ويحذرونهم غضبه وعقابه ، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ٠

وهؤلاء الأنبياء ليسوا بدرجة واحدة فى الفضل والمكانة ، بل بعضهم أفضل من بعض ، فقد جعلهم الله تعالى درجات ، وفى ذلك يقول تعالى :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (٢) ويقول أيضا : **﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾** (٣)٠

---

(١) سورة الأنبياء للآية ٧٣ ٠

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٥٣ ٠

(٣) سورة الإسراء الآية ٥٥ ٠

ومن الرسل الكرام من سماهم القرآن الكريم " أولـــى العــزم " وهم قادة الأنبياء وسادتهم ، وقد ذكرهم الله تعالى بالثناء العـــاطر ، وأمر رسوله ﷺ أن يقتدى بهم فى جهادهم وصبرهم ، فقال عز من قائل : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ (١).

وإنما سموا بــ " أولى العزم " لأن عزائمـــهم كـــانت قويـــة ، وابتلائهم كان شديدا ، وجهادهم كان شاقا ومريرا ٠٠ فمنـــهم مـــن صبر على البلاء والتكذيب القرون الطويلة ، وتعاقبت عليه الأجيال العديدة ، لأنه عمر طويلا ، ولكن حياته كانت كلها محنـــا وشـــدائد " كنوح " عليه السلام الذى لبث فى قومه قريبا من ألف عـــام ولـــم يؤمن معه إلا قليل ، وصدق الله حيث قال :

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِـــثَ فِيـــهِمْ أَلْـــفَ سَـــنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾ (٣) .

ومنهم من وصلت به الشدة والكربة ، ونال من قومه الشـــدائد والأهوال ، إلى درجة أنهم حكموا عليه بالتحريق بالنار ، كـــإبراهيم عليه السلام ، خليل الرحمن ، فقد كانت عقوبته فى ســـبيل تبليـــغ دعوة الله ، الاحراق بالنار ، ولكن الله عز وجل نجاه فأمر النـــار أن

---

(١) سورة الأحقاف من الآية ٣٥ ٠

(٢) سورة العنكبوت الآية ١٤ ٠

(٣) سورة هود من الآية ٤٠ ٠

تكون بردا وسلاما عليه ﴿ **قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(٦٩)وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ(٧٠)** ﴾ [١].

وهكذا بقية أولى العزم كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كلهم أوذوا ، واضطهدوا وشردوا ، فتحملوا الأذى والعذاب ، وصبروا على البلاء والشدة ﴿ **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [٢].

ولهذا استحقوا أن يكونوا قادة الأنبياء ، وسادة الرسل ، وأن يحملوا اللواء فى سبيل عزة الإنسانية ، وانتشالها من براثن الشرك والضلال ، إلى نور التوحيد والإيمان .

ولكن أفضل الرسل جميعا هو صفوة الخلق ، وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ ، فهو آخر الأنبياء فى البعثة ، وأفضلهم فى المنزلة والرتبة .. كما أن القرآن العظيم آخر الكتب السماوية وهو أشرفها وأفضلها ، فقد ختم الله تعالى بمحمد ﷺ النبوة ، كما ختم بالقرآن الكريم الوحى ، فكان ختام المسك ، وواسطة العقد ، قال تعالى :

﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [٣] .

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٦٩، ٧٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٦ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

اعتراض المشركين على بعثة الأنبياء :

لقد كان منطق الشرك والضلال فى كل عصر وزمان ، منطقا واحدا لا يكاد يتغير .. فما بعث الله نبيا إلا وقف المشركون فى وجهه وقفة اعتراض واستكبار وعناد يتساءلون : إنه بشر مثلنا يأكل كما نأكل ، ويشرب كما نشرب ، وينام كما ننام !! لماذا لا يكون من الملائكة ؟ لماذا لا يكون من الأشراف العظماء ، من أهل الثروة والسلطان ؟

لقد قص علينا القرآن الكريم مواقف الجحود والعناد من أمم رسل الله ففى قصة قوم نوح عليه السلام قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ(٢٣)فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ(٢٤)إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ(٢٥) ﴾ (١).

وقال فى موقف " عاد " مع نبى الله " هود " : **﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ(٣٣)وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا**

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ٢٣ ـ ٢٥ .

لَخَاسِرُونَ(٣٤)أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ(٣٥)هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ(٣٦) ﴾ [(١)].

وعن موقف الطاغية فرعون وزبانيته مع النبيين الكريمين " موسى وهارون " عليهما السلام قال جل ذكره :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(٤٥)إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ(٤٦)فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ(٤٧)فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ(٤٨)﴾ [(٢)].

أيضا موقف كفار قريش من دعوة سيد الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا(٤١)إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا(٤٢)﴾ [(٣)].

إنه موقف واحد لا يكاد يتغير ٠٠٠ موقف أملاه عليهم الطغيان والعناد والاستكبار ٠٠٠ وكأنهم عموا أو تعاموا عن حكمة الله الأزلية ، فى أن يكون النبى المرسل إلى الخلق ، من البشر لا من الملائكة وصدق الله حيث يقول :

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ٣٣ ــ ٣٦ ٠

(٢) سورة المؤمنون الآيات ٤٥ ــ ٤٨ ٠

(٣) سورة الفرقان الآيتان ٤١ ، ٤٢ ٠

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٤٣)﴾ (١).

لذا أمر سبحانه بمجادلة أهل الشرك بالرفق وبترك الغلظة عليهم فى حال جدالهم لتكون الحجة عليهم أظهر قال تعالى :

﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ (٢).

وهذه سنة الأنبياء عليهم السلام مع الأمم عند الدعوة والمجادلة ، من ذلك لما قالوا لنوح عليه السلام :

﴿ إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ(٢٥)قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِي(٢٦)﴾ (٣).

وقالوا له :

﴿ إنا لنراك فى ضلال مبين قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول رب العالمين ﴾ (٤) .

وقالوا لصالح :

﴿ إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ(٣٨)قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِي(٣٩)﴾ (٥).

---

(١) سورة النحل الآية ٤٣ .

(٢) سورة النحل من الآية ١٢٥ .

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ٢٥ ــ ٢٦ .

(٤) سورة الأعراف الآيتان ٦٠ ــ ٦١ .

(٥) سورة المؤمنون الآيتان ٣٨ ــ ٣٩ .

وقالوا لهود :

﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ(٦٦)قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٧)** ﴾ [١].

ولما قالوا لسيدنا محمد ﷺ : مجنون ، قال : ﴿ **وما مسنى السوء** ﴾ [٢] أى : جنون ، من غير أن يقابلهم على ذلك بقول غليظ خشن .

وهكذا فلو قابلهم الأنبياء بغلظة لنفرت طباعهم وانصرفت عقولهم عن التدبر لما قالوا ، ولم تتضح لهم المحجة .

فلهذا قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **. . . وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ . .** ﴾ [٣] .

وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٤٣)فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤)** ﴾ [٤].

وفى هذا غاية التخلى عن التعصب دون معرفة وجهة نظر الآخرين ثم الدخول معهم فى سياسة جدلية هادئة هدفها الوصول إلى الحقيقة وإقامة الحجة والبرهان من أقرب الطرق وأيسرها وهذا

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ٦٦ ــ ٦٧ .

(٢) سورة الأعراف من الآية ١٨٨ .

(٣) سورة آل عمران من الآية ١٥٩ .

(٤) سورة طه الآية ٤٤ .

أرقى ما يمكن أن تتخلق به البشرية فى مجادلتها وهو مـــن أنفـع الأساليب الناجحة فى الدعوة إلى الله واقناع الآخرين .

نماذج من جدال أولى العزم عليهم الصلاة والسلام للأمم :

سبق أن بينا أن أولى العزم من الرسل هم :

١ ــ نوح عليه السلام ،

٢ ــ ابراهيم الخليل عليه السلام .

٣ ــ موسى عليه السلام .

٤ ــ عيسى ابن مريم عليه السلام .

٥ ــ محمد خاتم النبيين عليه السلام .

أولا : جدال نوح عليه السلام لقومه

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ (١)

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : " كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام " .(٢)

فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة .

لقد ذكر نوحا عليه السلام فى ثلاثة وأربعين موضعا من القرآن الكريم وذكرت قصته منفصلة فى القرآن فى كثير من السور

---

(١) سورة العنكبوت الآية ١٤ .

(٢) أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى أمامة . انظر فتح البارى ١٨١/٧ .

الكريمة منها : الأعراف ، وهــود ، والمؤمنــون ، والشــعراء ، والقمر ، وذكرت له سورة خاصة تسمى " سورة نوح " وكلها تشير إلى بعثته ورسالته وطريق دعوته ، وإلى ما لاقاه من قومــه مــن جحود وعصيان ، وإلى صبره الطويل على الإيذاء ، وإلى العــذاب الذى حل بالمكذبين وهو الغرق وإلى نجاة من آمن به .

نوح أول رسول إلى الأرض :

يذكر أن نوحا عليه السلام هو أول رسول بعثه الله سبحانه إلــى أهل الأرض ، وقد أمره ربه أن ينذر قومه ويحذرهم عــذاب الله ، فكان نوح أول نذير وأول رسول كما قال سبحانه ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًــا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (١) .

ويستدل على ذلك بالحديث المروى فى الصحيحين وهو حديــث الشفاعة ، وفيه أن النبى ﷺ قال : " يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعى وتدنوا منهم الشــمس فيقول بعض الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ إلى ما بلغكــم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس : أبوكــم آدم فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيــك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلــى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربى غضب غضبا لــم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله . ونــهانى عــن الشــجرة

---

(١) سورة نوح الآية ١ .

فعصيت ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى • اذهبوا إلى نوح •
فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ،
وسماك الله عبداً شكوراً ، أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى
ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : ربى غضب اليوم غضبا
لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثلا • نفسى نفسى ، ائتوا
النبى ﷺ فياتونى فأسجد تحت العرش • فيقال : يا محمد ارفع
رأسك واشفع تشفع ، وسل تعطه " [١].

ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يسبقه بعثة أحد من الأنبياء قبله ،
فشيث وادريس وآدم أنبياء وكلهم قد بعثوا قبله ولكنهم لم يكونوا
رسلا فهو بهذا الاعتبار أول رسول وليس أول نبى ، ومعلوم أن
هناك فرقا بين النبوة والرسالة ، فالرسول هو الذى أوحى إليه بشرع
وأمر بتبليغه ، وأما النبى فهو الذى أوحى إليه بشرع ولكن لم يؤمر
بتبليغه •

لقد عاش نوح عليه السلام طويلا ، فكان أطول الأنبياء عمرا
وأكثرهم جهادا فقد تحمل من الأذى مالم يتحمله أحد من الرسل
فدعا قومه ليلا ونهارا وسرا وجهارا وأقام فيهم تسعمائة وخمسين
عاما ، يذكرهم ويعظهم ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة
الحسنة ولكنه لم يلق من قومه إلا كل تكذيب ، واضطهاد ، وصدود
وإعراض ، فكانت قلوبهم أشد من الحجارة ، وعقولهم أصلب من
الحديد •

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه • كتاب الأنبياء • باب قول الله عز وجل ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ١٨٢/٧ ـ ١٨٣ فتح البارى •

ولهذا كان نوح عليه السلام من أولى العزم الذين ذكرهم الله فى قوله لسيد الخلق ﷺ : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [1] وأمره بالسير على نهجهم ٠

لقد اتهم نوح عليه السلام بالسفه والضلال أيضا بالجنون كما سبق أن بينا ٠

أيضا اتهم بكثرة الجدل ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم حكاية عنهم : ﴿ **قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ** ﴾ [2] ٠

ومن نماذج جدال نوح عليه السلام لقومه :

قوله تعالى : ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(١٠)يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(١١)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(١٢)مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا(١٣)وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا(١٤)أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا(١٥)وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا(١٦)وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتًا(١٧)ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا(١٨)** ﴾ [3]

فى هذه الآيات الكريمة جادل نوح عليه السلام قومه بالحكمة والموعظة الحسنة ،جدالا فيه رحمة وشفقة وخوف عليهم من

---

(١) سورة الأحقاف من الآية ٣٥ ٠

(٢) سورة هود الآية ٣٢ ٠

(٣) سورة نوح الآيات من ١٠ ــ ٢٠ ٠

غضب الله • فلم يترك عليه السلام سبيلا للدعوة إلا فعلها فاستعمل طرقا ثلاثة :

١ ــ بدأهم بالمناصحة فى السر ، فجعلوا أصابعهم فى آذانهم ؛ لئلا يسمعوا الحجة والبينة ، وتغطوا بثيابهم ، لأجل أن لا يبصروا وجهه ، فصار المانع من السماع أقوى •

٢ ــ ثم جاهرهم بالدعوة ، وأعلنهم على وجه ظاهر لاخفاء فيه •

٣ ــ جمع بين الإعلان والإسرار •

ولما أصروا على إعراضهم وعدم سماعهم لدعوة الحق ، استدعاهم إلى الآخرة من الطريق التى يحبونها فقال :

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾

قال الفخر الرازى : " قال مقاتل : إن قوم نوح لما كذبوه زمانا طويلا حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة ، فرجعوا فيه إلى نوح ، فقال نوح : استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه " (١).

وأخرج الطبرى عن قتادة قال : " لما رأى نوح قوما تجزعت أعناقهم حرصا على الدنيا فقال : هلموا إلى طاعة الله فإن فيها درك الدنيا والآخرة " (٢).

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٣٠ / ١٣٧ •

(٢) تفسير الطبرى ٢٩ / ٥٩ •

لقد حاج نوح عليه السلام قومه ، بأمرهم بالاستغفار ووعدهم على ذلك بأمور هى أحب إليهم وأوقع فى قلوبهم من الأمور الأخروية ؛ لأنهم جبلوا على محبة الأمور الدنيوية . ومن ثم وعدهم بخمسة أشياء :

١ ــ ﴿ **يرسل السماء عليكم مدرارا** ﴾ أى : يرسل المطر عليكم متتابعا فتزرعون ما تحبون ، ويكثر الخصب والغلات النافعة لكم فى معاشكم .

٢ ــ ﴿ **ويمددكم بأموال** ﴾ أى : ويكثر لكم الأموال والخيرات .

٣ ــ ﴿ **وبنين** ﴾ أى : ويكثر لكم الأولاد .

٤ ــ ﴿ **ويجعل لكم جنات** ﴾ أى : ويوجد لكم بساتين عامرة .

٥ ــ ﴿ **ويجعل لكم أنهارا** ﴾ أى : أنهارا جارية ، بها يكثر الخصب والزرع .

قال الألوسى : " روى عن الربيع بن صبيح أن رجلا أتى الحسن وشكا إليه الجدب فقال له : استغفر الله تعالى . وأتاه آخر فشكا إليه الفقر . فقال له : استغفر الله تعالى . وأتاه آخر فقال له ادع الله سبحانه أن يرزقنى ابنا فقال له : استغفر الله تعالى وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه فقال له : استغفر الله تعالى ، فقلنا أتاك رجال يشكون ألوانا ويسألون أنواعا فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فقال : ما قلت من نفسى شيئا إنما اعتبرت قول الله عز وجل حكاية

عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام إنه قال لقومــه : ﴿ **اســتغفروا ربكم ٠٠ الآية** ﴾ " [1].

ومن هنا يتبين لنا كيف يدخل الداعى إلى قلوب الناس ويؤثر فيــهم عن طريق الترغيب فى تحصيل الأمور الدنيوية إذا ما أخلصوا العبــادة لله تعالى

فكانت محاجة نوح عليه السلام لقومه فى الآيات السابقة بتعليق السبب بالمسببات ، والأخذ بالأسباب ؛ فالاشتغال بالطاعــة سـبب لانفتاح أبواب الخير ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **تَكَادُ السَّــمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِـرُّ الْجِبَـالُ هَـدًّا(٩٠)أَنْ دَعَـوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا(٩١)** ﴾ [2]. فلما كان الكفر سببا لخــراب العــالم ، وجب أن يكون الإيمان سببا لعمارة العالم ٠ أيضا قولــه تعــالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْــهِمْ بَرَكَــاتٍ مِــنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [3] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَــةِ لأَسْــقَيْنَاهُمْ مَــاءً غَدَقًا** ﴾ [4].

﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(٢)وَيَرْزُقْــهُ مِــنْ حَيْــثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [5] .

---

(١) تفسير روح المعانى للألوسى ٢٩ / ٧٣ ٠

(٢) سورة مريم الآيتان ٩٠ ، ٩١ ٠

(٣) سورة الأعراف من الآية ٩٦ ٠

(٤) سورة الجن الآية ١٦ ٠

(٥) سورة الطلاق من الآيتين ٢ ، ٣ ٠

وبعد أن حاجهم بالأدب الخلقى وذلك بضرورة تهذيب نفوسهم واتباعهم مكارم الأخلاق ، حاجهم بالأدب العلمى وذلك بدراسة علم التشريح والنظر فى الأنفس فقال :

﴿ ما لكم لا ترجعون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ﴾ أى : ما لكم لا تخافون عظمة الله وقد خلقكم على أطوار مختلفة ، فكنتم نطفة فى الأرحام ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاما ، ثم كسا عظامكم لحما ، ثم أنشأكم خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ٠

وبعد أن ذكر النظر فى الأنفس أتبعه بالنظر فى العالم العلوى والسفلى فقال :

﴿ ألم ترو كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾ ٠

قال الطبرى : " يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نوح صلوات الله وسلامه عليه لقومه المشركين بربهم محتجا عليهم بحجج الله فى وحدانيته ألم تروا أيها القوم فتعتبروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا بعضها فوق بعض ، وجعل القمر بروجا ومنازل وفاوت نوره ، فجعله يزداد حينا حتى يتناهى ، ثم يبتدئ ينقص ليدل ذلك على مُضى الشهور والأعوام ، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل " [١]٠

وبعد أن حاجهم بالتأمل فى الآفاق رجع دلائل الأنفس فقال :

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾ ٠

---

(١) تفسير الطبرى ٢٩ / ٦٠ ٠

بين أن تعالى خلقهم من الأرض ثم يردهم إليها ثم يخرجهم منها مرة أخرى .

قال الشيخ المراغى : "وقد يكون المعنى : إنه أنبت كل البشر من الأرض ، لأنه خلقهم من النطف وهى متوالدة من الأغذية المتوالدة من النبات المتوالد من الأرض .

وجعلهم نباتا لأنهم ينمون كما ينمو النبات يلدون ويموتون ، وأيديهم وأرجلهم كأفرع النبات : وعروقهم المتشعبة فى الجسم والتى يجرى فيها الدم وينتشر فى الأطراف تشبه ما فى الشجر ، وأحوالهم مختلفة كأحوال النبات ، فمنه الحلو والمر والطيب والخبيث ، واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات ، فلكل امرئ خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة " [١].

ثم أخذ يعدد نعم الله تعالى التى أعدها للإنسان على الأرض ؛ كل ذلك ليثوبوا إلى رشدهم ، ويُؤمنوا بالخالق العظيم فقال :

﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطا** ﴾ [٢] أى : بسط لكم الأرض ومهدها وثبتها بالجبال الراسيات .

ثم بين حكمة هذا فقال :

﴿ **لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾ [٣] أى : طرقا واسعة واحدها فج .

هكذا نرى نوحا عليه السلام جادل قومه بالنظر فى علوم الأنفس والآفاق من معدن ونبات وحيوان وإنسان وسماء وأرض

---

(١) تفسير المراغى ٨٥/٢٩ .

(٢) سورة نوح الآية ١٩ .

(٣) سورة نوح الآية ٢٠ .

وشموس وأقمار . كما استعمل كل الوسائل والأساليب المختلفة المشتملة على الترغيب طورا والترهيب طورا آخر .

٢ ـ أيضا من نماذج جدال نوح عليه السلام لقومه قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢٥)أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ(٢٦)فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧)قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(٢٨) وَيَاقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ(٢٩)وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ(٣٠)وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنْ الظَّالِمِينَ(٣١) قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ(٣٢) ﴾[1].

فى هذه الآيات الكريمة بدأ نوح عليه السلام دعوته إلى قومه بالإنذار فقال :

(١) سورة هود الآيات ٢٥ ـ ٣٢ .

﴿ **إنى لكم نذير مبين** ﴾ أى : مهددا للعصاة بالعقاب .

ثم نهاهم عن عبادة غير الله وأمرهم بعبادة الله تعالى فقال :

﴿ **أن لا تعبدوا إلا الله** ﴾ ، وهو بدل من قوله ﴿ **إنى لكم نذير مبين** ﴾ .

ثم أكد خوفه عليهم من عذاب يوم أليم إن لم يخلصوا العبادة لله تعالى ويفردوه بالتوحيد ، فقال :

﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾

فنجده عليه السلام استخدم فى دعوته لقومه أسلوب الإنذار والتحذير ، ثم الخوف والترغيب وهذا على قاعدة التخلية مقدمة على التحلية .

حينئذ احتج عليه قومه بأربع حجج داحضة ظنا منهم أنها تكفى فى رد دعوته والطعن فى نبوته :

الحجة الأولى : أنه بشر مثلهم ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا** ﴾ أى : ما أنت إلا بشر فى الجنس لا مزية لك علينا تجعلنا نطيعك ونذعن لنبوتك .

الحجة الثانية : كونه ما اتبعه إلا أراذل القوم ، أهل الحرف الخسيسة فقالوا : ﴿ **ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾ أى : اتبعك اخساؤنا وسفلتنا .

قال النحاس : " الأراذل هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيسون الصناعات " [1].

---

(١) تفسير القرطبى ١٧/٩ .

وقوله ﴿ بادى الرأى ﴾ أى : اتبعوك حين ابتدأوا ينظـــرون ، وقبل التأمل فى عواقب اتباعك ، ولو أمعنوا النظـــر والفكـــر لـــم يتبعوك .

الحجة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضـــل** ﴾ أى : ليس لك ولا لمن اتبعك أدنى امتياز عنا من قوة أو كـــثرة أو علم أو فى قوة الجدل . فإذا لم نشاهد فضلك علينا فى شئ من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا فى أشرف الدرجـــات وأعلى المقامات .

الحجة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ **بل نظنكـــم كـــاذبين** ﴾ أى : نرجح الحكم عليك وعلى أتباعك بالكذب ، فأنت كاذب فى دعـــوى النبوة ، وهم كاذبون فى تصديقك .

لقد اقتصروا فى حجتهم على الظن ولم يجزموا بها ، لأن ذلـــك كاف فى رد دعوته وعدم الدخول فى دينه .

رد نوح ــ عليه السلام ــ على حججهم السالفة :

بعد أن ذكر سبحانه مقالتهم وطعنهم فى نوح عليه السلام بتلـــك الحجج السالفة ، قفى على ذلك بدحض نوح لها .

الرد على الحجة الأولى : قولهم : ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا** ﴾ .

حاجهم عليه السلام بأن حصول المساواة فى البشرية لا يمنـــع من حصول المفارقة فى صفة النبوة والرسالة ؛ فذكر الطريق الدال على إمكانية ذلك ، فقال :

﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ .

قال الألوسى : " وحاصل الجواب : أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى إلا أنها خافية عليكم غير مسلمة لديكم أيمكننا أن نكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها ، أى لا يكون ذلك .. "(١) .

وفى هذا بيان أن الإيمان لا يكون بالإكراه نحو قوله تعالى : **﴿ لا إكراه فى الدين ﴾**(٢).

والاستفهام فى قوله **﴿ أرأيتم ﴾** للحمل على الإقرار وهو الأنسب بمقام المحاجة .

قال الشيخ المراغى : " وفى هذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ، وردٌ لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها ، وإبطال لشبهتهم فى أنه بشر مثلهم ، وقد فاتهم أن المساواة فى البشرية لا تقضى استواء أفراد الجنس فى الكمالات والفضائل ؟ فالمشاهدة والتجارب تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر فى العقل والفكر والرأى والأخلاق والأعمال ، حتى إن الواحد منهم ليأتى بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل يعجِز عن مثلها الألوف من الناس فى أجيال كثيرة .

---

(١) تفسير الألوسى ١٢/٤٠ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٥٦ .

والناس ألف منهم كواحد ووواحد كالألف إن أمر عرا

فما بالك بمن يختصهم الله من عباده بما شاء مما لا كسب لهم فيه كالأنبياء والرسل الكرام " [1] .

الرد على الحجة الثانية : قولهم ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾ .

فقد حاجهم عليه السلام بقوله :

﴿ **ويا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون** ﴾ .

قوله : ﴿ **ويا قوم** ﴾ ناداهم بذلك ، تلطفا بهم ، واستدراجا لهم ، وهذا من أسلوب الجدال الحسن ، كى يقبلوا عليه .

قال الفخر الرازى : " اعلم أن هذا هو جواب عن الشبهة الثانية وهى قولهم لا يتبعك إلا الأراذل من الناس وتقرير هذا الجواب من وجوه :

الوجه الأول : أنه عليه الصلاة والسلام قال : أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرا أو غنيا وإنما أجرى على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين ، وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال فى ذلك .

---

(١) تفسير المراغى ٢٧/١٢ .

الوجه الثانى : كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور وجدتمونى فقيرا وظننتم أنى إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم ، وهذا الظن منكم خطأ فإنى لا أسئلكم على تبليغ الرسالة أجرا إن أجرى إلا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الذين بسبب هذا الظن الفاسد .

الوجه الثالث : . . . . . " [١].

أيضا لما سألوه طرد أولئك الفقراء ترفعا لأنفسهم عن مشاركتهم والجلوس معهم قال :

﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** ﴾ ، وفى هذا إشارة إلى الجواب عن قولهم : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ .

ثم علل الامتناع من طردهم بقوله :

﴿ **إنهم ملاقوا ربهم** ﴾ أى : إن هؤلاء الذين تسألوننى طردهم صائرون إلى ربهم وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ، ولا يسألهم عن حسبهم وشرفهم .

وجاءت هذه الجملة بصيغة التأكيد ، لأن الملأ الذين كفروا من قومه كانوا ينكرون البعث والحساب .

الرد على الحجة الثالثة : قولهم : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾

بعد أن بين لهم هذا البيان المنطقى الواضح ، أتى باستدراك مؤكد لمضمون هذا البيان فقال :

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢١٥/١٧ .

﴿ **ولكنى أراكم قوما تجهلون** ﴾ أى : أراكم قوما تجهلون القيم الحقيقية التى يقدر بها الناس عند الله ، وتجهلون أن مـــرد النــاس جميعا إليه وحده سبحانه ، ليحاسبهم على أعمالهم .

وفى هذا تبكيت لهم بوصفهم بالطغيـــان والسـفاهة ، وأنـــهم يجهلون كل ما ينبغى ألا يجهله عاقل .

ثم جادلهم جدالا منطقيا بالعقل والشرع ورتب النتيجة على المقدمـة فقال :

﴿ **ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم** ﴾ .

أى : إنه لابد من تعظيم المؤمن البر التقى . ومن إهانــة الفــاجر الكافر .

فلو عكستُ القضية وقربت الفاجر ، وطردت المؤمن .

النتيجة : كنت فى هذا الحكم على ضد ما أمر الله تعالى وحينئـــذ أصير مستوجبا للعقاب العظيم فمن ذا الذى ينصرنى من الله تعالى ومن الذى يخلصنى من عذاب الله ، ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ فتعلمون أن ذلـــك لا يصح .

الرد على الحجة الرابعة : قولهم :﴿ **بـــل نظنكـم كـاذبين** ﴾ ؛ فأنت كاذب فى دعوى النبوة ، وهم كاذبون فى تصديقك .

رد عليه السلام عليهم فقال :

﴿ **ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيـــب ولا أقـــول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيـــهم الله خـــيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين** ﴾

أى : كيف تنسبوا إلىَّ الكذب وأنا لا أقول لكم بادعائى للنبوة والرسالة إن عندى خزائن رزق الله أتصرف فيها فأنفق على نفسى وعلى من تبعنى ، بل أنا وغيرى فى الكسب سواء ، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة ولا من خصائص النبى ، ولو كان كذلك لاتبع الناس الرسل لأجلها • بل الغاية من بعث الرسل تزكية الأنفس بمعرفة الله وعبادته ، وتأهيلها لمثوبته ورضاه عنها يوم لا ينفع مال ولا بنون •

كما أنى لا أدعى بأنى أعلم الغيب أو بأنى ملك من الملائكة ، ولا أقول لكم – أيضا – للذين اتبعونى وآمنوا بالله وحده ، وأنتم تنظرون إليهم نظرة استصغار واحتقار فتزدريهم أعينكم لغفرهم ورثاثة حالهم إنهم – كما تزعمون – ﴿ **لن يؤتيهم الله خيرا** ﴾ يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم ، بل أقول لكم إنه سبحانه سيؤتيهم ذلك إذا شاء ، لأنه سبحانه هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر أما أنا فلا علم لى إلا بظواهرهم التى تدل على إيمانهم وإخلاصهم ثم أكد رده عليهم وعلى مفترياتهم بعدة مؤكدات فى قوله : ﴿ **إنى إذن لمن الظالمين** ﴾ ؛ تحقيقا لظلم كل من يدعى شيئا من هذه الدعاوى ، وتكذيبا لأولئك الكافرين الذين احتقروا المؤمنين وزعموا أن الله تعالى لن يؤتيهم خيرا •

وهكذا نجد نوحا عليه السلام يجادل قومه بأدب جم ولطف ولين ، فقد ناداهم بلطف بقوله : ﴿ **ويا قوم** ﴾ ولم يكتف بذكرها مرة واحدة ، بل كررها عدة مرات فى قوله :

﴿ **يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى • • • •** ﴾

﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى على الله ۰۰۰ ﴾

﴿ ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ۰۰۰۰ ﴾

وبالرغم من التلطف واللين والرفق من جانب نوح عليه السلام وأدبه فى جداله مع قومه وتكراره لفظ ﴿ يا قوم ﴾ إلا أن قومه قابلوه بالفظاظة والغلظة خاصة عندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نبيهم بأسلوب مقارعة الحجة بالحجة ، حينئذ لجأوا إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم فقالوا كما حكى القرآن عنهم :

﴿ قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ(٣٢)قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ(٣٣)وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٣٤)﴾ (١)

قال الفخر الرازى : " أعلم أن الكفار لما أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أورد الكفار على نوح كلامين :

الأول : أنهم وصفوه بكثرة المجادلة ۰ فقالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان أكثر فى الجدال معهم ، وذلك الجدال ما كان إلا فى إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وهذا يدل على أن الجدال فى تقرير الدلائل وفى

---

(١) سورة هود الآيات ٣٢ ـ ٣٤ ۰

إزالة الشبهات حرفة الأنبياء ، وعلى أن التقليد والجهل والاصـــرار على الباطل حرفة الكفار ٠

الثانى : أنهم استعجلوا العذاب الذى كان يتوعدهم به ، فقـالوا : ﴿ **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ ثم إنـــه عليـــه الســـلام أجاب عنه بجواب صحيح فقال : ﴿ **إنما يأتيكم به الله إن شاء وما انتم بمعجزين** ﴾ ٠

والمعنى : أن إنزال العذاب ليس إلىَّ ٠ وإنما هـــو خلـــق الله تعالى فيفعله إن شاء كما شاء ، وإذا أراد إنزال العذاب فـــإن أحـــدا لا يعجزه ، أى لا يمنعه منه ، والمعجز هو الذى يفعل ما عنده لتعـــذر مراد الغير فيوصف بأنه أعجزه ، فقوله ﴿ **وما انتم بمعجزيـــن** ﴾ أى : لا سبيل لكم إلى فعل ما عنده ، فلا يمتنع على الله تعالى مـــا يشاء من العذاب إن أراد إنزاله بكم ٠٠٠ "[1].

هذا ولما أجاب نوح عليه السلام عن شـــبهاتهم ختـــم الكـــلام بخاتمة قاطعة ، فقال :

﴿ **ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم** ﴾ أى : إن كـــان الله يريد أن يغويكم فإنه لا ينفعكم نصحى البتة ٠

وأخيرا لما يئس نوح عليه السلام من قومه وما لاقاه منهم مـــن كل أصناف التعذيب ولم يجد أمامه سوى الوعيد فقال :

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢١٨/١٧ ٠

﴿ **هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾ أى : هو ربكم ومالك التصـرف فى ذواتكم قبل الموت وعند الموت وبعد الموت مرجعكم إليه .

وهكذا نجد نوحا عليه السلام قد سلك فى جـدال قومـه وفـى دعوتهم إلى عبادة الله ، أحكم السبل ، واستعمل أبلـغ الأسـاليب ، وصبر على سفاهة قومه صبرا جميلا .

ثانيا : جدال إبراهيم عليه السلام لقومه

ابراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وهو الجد الأكبر لرسول الله ﷺ ، إذ أنه من ولد اسماعيل ، واسماعيل هو ابن إبراهيم ، فيكون إبراهيم هو الجد الأعلى لرسول الله ﷺ ٠

وهو إبراهيم بن تارح " ٢٥٠ " بن ناحور " ١٤٨ " بن ساروغ " ٢٣٠ " ٠٠٠ وينتهى نسبه إلى " سام بن نوح " وبينه وبين نوح عليه السلام مدة تزيد على ألف عام ، وهذا النسب هو الذى ذكره ابن كثير (١) ٠

وقد تزوج إبراهيم عليه السلام بامرأة تدعى " سارة " وكانت سارة عاقرا لا تلد ، وهاجر إبراهيم عليه السلام مع والده وزوجته فخرجوا من أرض الكلدانيين " أرض العراق " وهى أرض الكنعانيين وهى " بلاد المقدس " فأقاموا " بحران " وهى بلدة قريبة من الشام ، وكان أهلها يعبدون الكواكب السبعة ، وكان أهل الشام وكذلك أهل الجزيرة ـ كما يروى ابن كثير ـ على هذه العقيدة الضالة يستقبلون القطب الشمالى ، ويعبدون الكواكب السبعة ، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ، وكانوا يعملون لها أعيادا وقرابين ٠ وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارا ، سوى ابراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام ٠ وكان

(١) قصص الأنبياء ص ١٢٠ ٠

الخليل عليه السلام هو الذى أزال الله به تلك الشرور ، وأبطل بـــه ذاك الضلال ، حيث بعثه الله بالحجة الدامغة والبرهان القاطع ، وأتاه رشـــده منذ الصغر ، وابتعثه رسولا واتخذه خليلا فى كبره ٠

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِـــهِ عَالِمِينَ** ﴾ (١) أى : كان أهلا لذلك (٢) ٠

نشأ ابراهيم عليه السلام وسط بيئة فاسدة يحكمها ملك طاغيـــة ، مستبد برأيه اسمه " النمرود بن كنعان " ٠

بدأ ابراهيم عليه السلام دعوته بأبيه آزر ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام ، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له ٠

فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلـــــة ، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة ، وبين لـــــه بطلان عبادة الأوثان التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنه شيئا أو تفعل به خيرا من رزق أو نصر ، قال تعالى :

﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(٤١)إِذْ قَـــالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَـــا لا يَسْـمَعُ وَلا يُبْصِـرُ وَلا يُغْنِــي عَنْــكَ شَيْئًا(٤٢)يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْــدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا(٤٣)** ﴾ (٣) ٠

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥١ ٠

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٢٠ ــ ١٢١ بتصرف ٠

(٣) سورة مريم الآيات من ٤١ ــ ٤٣ ٠

ثم ناظر قومه ، وبين لهم أن هـــذه الأجـــرام المشـــاهدة مـــن الكواكب النيرة ، لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجـــل ، لأنها مخلوقة مربوبة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هـــذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شئ ولا تخفى عليه خافية ، بـــل هو الباقى بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ٠ فقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ(٧٦)فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَـــالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِـــنْ الْقَـــوْمِ الضَّـــالِّينَ(٧٧)فَلَمَّـــا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَـــاقَوْمِ إِنِّـــي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(٧٨)إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ(٧٩) وَحَاجَّـــهُ قَوْمُـــهُ قَـــالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلا أَخَافُ مَا تُشْـــرِكُونَ بِـــهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ(٨٠)وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُـــنَزِّلْ بِـــهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٨١)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَـــاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(٨٣)﴾ [١] ٠

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٦ ــ ٨٣ ٠

ذكر بعض العلماء أن إبراهيم عليه السلام إنما اشتغل بـــالنظر فى الكواكب والقمر والشمس كان قبل بلوغه ، ومنهم من قـال : إن هذا كان بعد البلوغ .

والتحقيق : أنه تعالى قال فى الآية التى سبقت هذه الآيـــات : ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكـــون مـن الموقنين** ﴾ [1] أى : وليكون بسبب تلك الاراءة من الموقنين .

ثم قال بعده ﴿ **فلما جن عليه الليـــل ..** ﴾ والفـاء تقتضـى الترتيب فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار ابراهيم عليـه السلام من الموقنين العارفين بربه .

قال الفخر الرازى : " إن هذه الواقعة إنمـا حصلـت بسـبب مناظرة ابراهيم عليه السلام مع قومه ، والدليل عليه أنه تعالى لمـا ذكر هذه القصة قال : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه** ﴾ ولم يقل " على نفسه " فعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مـع قومـه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد . لا لأجل أن إبراهيم كـان يطلب الدين والمعرفة لنفسه " [2].

هذا فقول إبراهيم عليه السلام " هذا ربى " ليس علـى سـبيل الإخبار ، بل الغرض منه أنه كان يناظر عبـدة الكواكـب وكـان مذهبهم أن الكواكب ربهم وآلهتهم ، فذكر ابراهيم عليه السلام ذلـك

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ٤٨/١٣ .

القول الذى قالوه بلفظهم وعبارتهم ، حتى يرجع إليه فيبطله . وهذا من أسلوب المحاورة والمجادلة أن يذكر الفرية ثم يفندها بالعقل تارة وبالحس والمشاهدة تارة أخرى . وقد أوتى ابراهيم الحجة وهى من أشرف النعم ، ومن أجلّ مراتب العطايا والمواهب .

قال ابن كثير : " والظاهر أن موعظته هذه فى الكواكب لأهل " حران " فإنهم كانوا يعبدونها .. وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم فى عبادتها وكسرها عليهم ، وأهانها وبين بطلانها " (١).

لقد كان ابراهيم عليه السلام ذكيا صائب الرأى ، وقد علم أن " الحجة " و " البرهان " اللفظى وإن وضحا وضوح الصبح لا ينبتان نباتا حسنا فى هذه الأرض الجرز ، ما لم يقارنهما الحس والبصر ، لذلك فقد أراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم وأن يقرن حواسهم مع أفئدتهم ؛ لعلهم يرجعون عن غيهم ، ويدركون بأنفسهم تفاهة ما هم عليه من سفاهة بعبادتهم لأحجار لا تنفع ولا تسمع ، ولا تغنى عن معبودها شيئا .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ(٥١)إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(٥٢)قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ(٥٣)قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٥٤)قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ**

---

(١) قصص الأنبياء ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .

اللاعِبِينَ(٥٥)قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ(٥٦)وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ(٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ(٥٨)قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنْ الظَّالِمِينَ(٥٩)قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ(٦٠)قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ(٦١)قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ(٦٢)قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ(٦٣)فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ(٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ(٦٥)قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ(٦٦)أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ(٦٧)قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٦٨) ﴾[(١)].

أخرج ابن جرير الطبرى عن السدّى " أن ابراهيم قال له أبوه يا ابراهيم إن لنا عيدا لو قد خرجت معنا إليه قد أعجبك ديننا فلما كان يوم العيد فخرجوا إليه خرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إنى سقيم . يقول : أشتكى رجلى فتواطؤا رجليه وهو صريع فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفىّ الناس تالله لأكيدن أصنامهم بعد أن تولوا مدبرين فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم إلى بيت الآلهة فإذا هى فى بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى بعض كل

---

(١) سورة الأنبياء ٥١ ـ ٦٨ .

صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو ، وإذا هم قـــد جعلــوا طعاما فوضعوه بين أيدى الآلهة ، قالوا : إذا كان حين نرجع رجعنا وقد بركت الآلهة طعامنا فأكلنا فلما نظر إليهم ابراهيم وإلى ما بيــن أيديهم من الطعام ، قال : ألا تأكلون فلما لم تجبه قال مـــا لكــم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فأخذ فأس حديد ، فنقر كل صنــم فى حافتيه ثم علق الفأس فى عنق الصنم الأكبر ثم خرج فلما جــاء القوم إلى طعامهم نظروا إلى آلهتهم قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنــه لمن الظالمين ، قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ٠ وقولــه ﴿ **إلا كبيرا لهم** ﴾ يقول إلا عظيما للآلهة فإن ابراهيم لــم يكسـره ولكنه فيما ذكر علق الفأس فى عنقه " (١).

لقد كان الهدف الرئيسى من محاجة ابراهيم لقومــــه أن يــهدم معتقدات قومه بالحجة القولية والحجة التطبيقية العملية ٠

كما كان من أكبر مقاصده أن يجتمع الناس كلهم ، فيقيم علـــى جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليـــه ، كمـــا قـــال موسى عليه السلام لفرعون ﴿ **موعدكم يوم الزينـــة وأن يحشــر الناس ضحى** ﴾ (٢).

حينئذ تكاثرت الجموع ، الكل يرغب فى القصاص منه ، ويــود رؤية عقابه وعذابه ٠٠ ثم جاءوا به وسط هـــذا الجمـع الزاخــر وابتدأوا محاكمته على رؤوس الأشهاد ٠

---

(١) تفسير الطبرى ٢٨/١٧ ـ ٢٩ ٠

(٢) سورة طه الآية ٥٩ ٠



المناظرة

تقدم ابراهيم عليه السلام أمام هذا الحشد الكثير من قومه ، وعرضت عليه تلك الأسئلة :

﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ﴾ ؟

لقد كان ابراهيم عليه السلام حكيما ذكيا ، فسار بهم فى الجدال إلى ناحية أخرى ، ليبلغ مقصده ويبلّغ رسالته ، مهما كانت النتائج .. وجرهم بطريق الحكمة إلى جواب لم يقصدوه ، ليلزمهم الحجة لعلهم يرجعون إلى صوابهم فقال :

﴿ بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾

لقد صفعهم بهذه الحجة الدامغة ، التى نبهتهم من غفلتهم ، وأيقظتهم من غفوتهم ، وأراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيتعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون وقالوا ﴿ **إنكم أنتم الظالمون** ﴾ لقد تركتموها لا حافظ لها ولا رقيب عندها .. هنالك انتابتهم الحيرة وعقدت ألسنتهم فأطرقوا رؤسهم مفكرين ، ثم توجهوا بالكلام مع ابراهيم :

﴿ **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ أى : لقد عرفت يا ابراهيم أن هذه الأصنام لا ترد سؤالا ، ولا تسمع كلاما ، فكيف تأمرنا بسؤالها وهى حجارة صماء جامدة . فلما أقروا بعجز الآلهة ، وقصورها عن معرفة ما يجرى حولها ، وجردوها من القدرة على دفع العدوان ، وصد كيد المعتدين .

حينئذ ظهرت حجة ابراهيم واضحة ـ ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم بالمنطق السوىّ السليم فأخذ يبكتهم على جهلهم ، ويوبخهم على ثباتهم على باطلهم بعد وضوح الحق وسطوعه :

﴿ **قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾ أى : كيف تعبدون أصناما أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون .

هنالك عدلوا عن الجدل والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم ، لينصروا ما هم عليه من سفه وطغيان وباطل فقالوا :

﴿ **حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾

جدال ابراهيم عليه السلام للنمرود :

قال الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (١) .

يذكر الله تعالى مجادلة خليله ابراهيم عليه السلام مع هذا الملك الجبار المتمرد ، الذى ادعى لنفسه الربوبية ، ونازع الله فى عظمته

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

وسلطانه ، فادعى أنه الإله من دون الله ، فأبطل الخليل عليه دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الحجة .

قال المفسرون [1] وغيرهم من علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هو مالك بابل ، واسمه النمرود بن كوسن بن كنعان بن سام بن نوح .

قال مجاهد وغيره : وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان ، وكافران ، فالمؤمنان : ذو القرنين الذى ذكره الله تعالى فى سورة الكهف ، وسليمان بن داود عليهما السلام . وأما الكافران فهما : النمرود وبختنصر . وأما غيرهم فلم يملك الدنيا وإنما ملك بلدا أو بلادا مثل فرعون فقد كان يملك أرض مصر . وذكروا أن النمرود هذا قد استمر فى ملكه أربعمائة سنة . وكان قد طغى وبغى ، وتجبر وعتى وآثر الحياة الدنيا ، فناظره الخليل عليه السلام ، فسفه عقله وأبطل حجته .

" قال السدّى : إنه لما خرج ابراهيم من النار أدخلوه على الملك ــ ولم يكن قبل ذلك دخل عليه ــ فكلمة وقال له : من ربك ؟ فقال : ربى الذى يحيى ويميت . قال النمرود : أنا أحى وأميت ، وأنا آخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتا ولا يطعمون شيئا ولا يسقون حتى إذا جاءوا أخرجتهم فأطعمت أثنين فحييا وتركت اثنين فماتا . فعارضه ابراهيم بالشمس فبُهت " (٢).

---

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣١ ــ ١٣٢ ، وتفسير القرطبى ١٨٤/٣ ــ ١٨٥ ، وتفسير ابن كثير ٢٩٦/١ ، وتفسير الفخر الرازى ٢١/٧ ــ ٢٢ وتفسير الألوسى ١٦/٣ .

(٢) تفسير القرطبى ١٨٥/٣ ــ ١٨٦ .

وقيل : فدعا حاجبه فقال له اذهب فائتنى برجلين من السجن قد استوجبا القتل أى حُكم عليهما بالإعدام ، فذهب الحاجب فأتى برجلين فوقفا بين يديه فأمر الجلاد أن يضرب عنق أحدهما ، فضربه فمات ، فقال النمرود : هذا أمتّه ، وأمر بإطلاق سراح الثانى فأطلق ، فقال : وهذا أحييته ..

وهذا الجواب من ذلك الملك الجبار يدل على أنه لم يفهم قول ابراهيم عليه السلام ؛ فإن الحياة فى جواب ابراهيم عليه السلام بمعنى إنشاء الحياة فى جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها ، وإزالة الحياة بالموت ، ويعنى به الحقيقة لا المجاز ، أما جواب النمرود بمعنى أنه يكون سببا فى الإحياء والإماتة ، وقد استخدم المجاز لا الحقيقة ، وذلك منتهى الجهل والغباء .. فلما رأى الخليل عليه السلام حقارته وقلة عقله ، وغباء تفكيره انتقل معه إلى أمر لا يمكنه اللجاج فيه والجدل ، لأنه أمر قاطع ، يلجم كل معاند ، فقال له ابراهيم عليه السلام :

﴿ إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من الغرب ﴾ وهنا كانت الحجة الدامغة التى لا تنفع معها المجادلة والمكابرة ، لأنها أمر بيّن : إن كنت حقا إلها ، فغير لنا من هذه النظم ، فالشمس تطلع من المشرق فحولها وائت بها من المغرب .

وقد طرح الإمام ناصح الدين [1] سؤالا ثم أجاب عليه فقال :

" فإن قيل : ما الحكمة أنه جادل الملك بالاحياء والإماتة والإتيان بالشمس من المشرق وكل ذلك يمكن دعوى المعارضة له والكلام عليه ، ولم يدعه بالحجة العظمى وجادل قومه بالحجة العظمى ؟

فالجواب أن الملك كان يدعى الربوبية فلا يقال إنه لا يخلوا إما أن يكون لنا إله أو بخلاف حال قومه فإنهم لم يدَّعوا ربوبية " .

وعلق الدكتور / زاهر بن عواض فقال : " إن ابراهيم عليه السلام لما رأى من خصمه المعاندة واللجاجة والمغالطة أراد أن يستدرج خصمه وأن يحيطه بلجام من الإلزام والافحام فكأنه قال له : لو سلمنا لك إحدى مقدمات دليلك جدلا فإننا نريد منك البرهان على المقدمة الثانية ، وهى من يحيى ويميت قادر على تسخير هذا الكون فهل تستطيع أن تغير شيئا من نظام الكون على خلاف ما هو عليه الآن ؟

وعمد ابراهيم عليه السلام إلى الشمس دون سائر الآيات الكونية الأخرى ليلزم خصمه بأحد أمرين كلاهما من صميم دعوته عليه السلام : .

الأول : قطع لجاجة الخصم وإفحامه وإثبات عجزه ، وقد حصل هذا الأمر وفقا لما أراده ابراهيم عليه السلام ولله الحمد .

---

(١) انظر : كتاب استخراج الجدال من القرآن الكريم للإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلى ص ٦٨ ــ ٦٩ تحقيق د / زاهر بن عواض الألمعى .

الأمر الثانى : أن ابراهيم قد خبأ للخصم فى هذا الطلب إلزاما آخر يفسد على الخصم جمهور أتباعه ومناصريه فيما لو استرسل فى مغالطته ، إذ كانوا يعتقدون فى الكواكب بأنها مؤثرة ويعتبرون الشمس الإله الأكبر فلو قال الملك من قبيل المكابرة والمعاندة : أنا الذى أتيت بالشمس من المشرق وأنا سخرتها تجرى فى مدارها على هذا النظام القائم ، لقال ابراهيم عليه السلام : ما دمت أنت المدبر لهذه الأفلاك والمسير لها فكيف يعتقد قومك بأنها آلهة يعبدونها من دونك ٠ فهل يكون الإله مُدَبَّراً ومُسَيَّراً ؟ وهذا الأمر يستلزم بطلان اعتقادهم فى هذه الكواكب بأنها آلهة " [١].

وبهذا أبطل ابراهيم عليه السلام معتقدات قومه بإفحام النمرود وإثبات عجزه ٠

وهذا كله تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة فى الدين ، لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل ٠

---

(١) المرجع السابق ٠

ثالثا : جدال موسى عليه السلام لقومه

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام [1]. قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا ﴾ [2].

وولد عليه السلام فى عهد الطاغية الأكبر " فرعون " عدو الله الذى اشتهر بالطغيان والجبروت فنازع الله فى ملكه ، وادعى الربوبية ، وزعم أنه هو المعبود من دون الله ، واسم ذلك الطاغية " الوليد بن مصعب " ولقبه " فرعون " وفرعون لقب لكل من ملك أرض مصر من الجبابرة ، كما أن " كسرى " لقب لكل من ملك بلاد الفرس ، و " قيصر " لقب لكل من ملك بلاد الروم .

وقد ذاق بنى اسرائيل من أذاه وشره ما لم يذوقوه من قبل ولا من بعد ، قال تعالى :

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٣)إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(٤) ﴾ [3]

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٧٠ .

(٢) سورة مريم الآية ٥١ .

(٣) سورة القصص الآيتان ٣ ، ٤ .

هذا هو منطق الطغيان فى كل وقت وزمان ، لا يفهم حجة ولا برهانا ولا يقيم وزنا لمنطق أو عقل ، إنما طريقه البطش والإرهاب والتعذيب والتنكيل .

هذا هو منطق فرعون فى زمن موسى . أما منطق موسى فهو منطق العقل ، ومنطق الحكمة ، ويتجلى فى قوله عليه السلام لقومه بعد أن ذاقوا أنواع الأذى ، وصنوف البلاء : ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ (1) .

ومن نماذج جدال موسى عليه السلام :

قوله تعالى : ﴿ **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (2) إلى أن قال سبحانه : ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٣)قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ(٢٤)قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ(٢٥)قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ(٢٦)قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(٢٧)قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ(٢٨)قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ(٢٩)قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ(٣٠)قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ(٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ(٣٢)وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ(٣٣)** ﴾ (3) .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٨ .

(٢) سورة الشعراء من الآية ١٦ .

(٣) سورة الشعراء الآيات ٢٣ ــ ٣٣ .

يذكر الله تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المحاجة والمناظرة وما أقامه موسى ــ عليه السلام ــ على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية • وذلك أن فرعون ــ قبحه الله ــ أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله :

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى(٢٣)فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(٢٤) ﴾ [١].

ولهذا قال لموسى ــ عليه السلام ــ على سبيل الإنكار لرسالته ، **﴿ وما رب العالمين ﴾** ، لأنهما قالا له : **﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ فكأنه** يقول لهما : ومن رب العالمين ؟ الذى تزعمانه أنه أرسلكما وابتعثكما ؟ •

وعلم موسى أنه سؤال عن ماهية رب العالمين ، ورب العالمين هو الأول فلا شئ قبله والآخر والظاهر والباطن إذاً فلا جواب لقول فرعون وما رب العالمين إلا بذكر آثار ذات واجب الوجود وهى هذا العالم المحسوس وهو السموات والأرض وما بينهما • فلم يشتغل موسى برد سؤاله وبيان فساده ، وكان المقصود تعريف الرب جل وعلا بصنعته فقال : **﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾** [٢].

فحصر موسى ــ عليه السلام الكائنات فى ثلاث كلمات : **﴿ السموات ﴾ و ﴿ الأرض ﴾ و ﴿ وما بينهما ﴾** • وفى هذا الرد بيان وإيجاز غير مخل بالمعنى •

---

(١) سورة النازعات الآية ٢٤ •

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٤ •

ولما ذكر موسى ـ عليه السلام ـ هذا الجواب الحق ، ﴿ **قال فرعون لمن حوله ألا تستمعون** ﴾ .

قال الفخر الرازى : " وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعني : أنا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية " [1].

فأجاب موسى عليه السلام : ﴿ **قال ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ [2].

يقول الفخر الرازى : " وكأنه ـ أى موسى عليه السلام ـ عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض إلى التعريف بكونه تعالى خالقا لنا ولآبائنا ، وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها فهى غنية عن الخالق والمؤثر ، ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل فى نفسه وأبيه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم ، لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته ، وما لم يكن واجبا لذاته استحال وجوده إلا لمؤثر ، فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى ـ عليه السلام ـ من الكلام الأول إليه " [3] فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا رب كما يدّعى .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٤ / ١٢٩ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٦ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ٢٤ / ٢٩ .

والمعنى : أن هذا الرب الذى أدعوكم إليه هـو الـذى خلـق آباءكم الأولين وخلقكم ، فكيف تعبدون من هو واحد منكم مخلـوق كخلقكم وله آباء قد فنوا كآبائكم .

حينئذ لم يجد فرعون شيئا يجبه به ، بـل جـاء بمـا يشـكك قومه ويخيل إليهم أن هذا الذى قاله موسى ممـا لا يقولـه العقـلاء ، فـ ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُـمْ لَمَجْنُـونٌ ﴾ [1] وهـذه حجة ضعيف الحيلة ، فقد رمى موسـى بـالجنون ، مظـهرا لقومـه أنه مستخف بما قاله موسى مستهزئ بـه ، قـاصدا بذلـك المغالطـة وإيقاع القوم فى حـيرة .

فلما سمع موسـى مـا قالـه فرعـون ، أورد عليـه حجـة أخرى مندرجة تحت ربوبيته سـبحانه للسموات والأرض ومـا بينـهما .

فـ ﴿ **قال رب المشـرق والمغـرب ومـا بينـهما إن كنتـم تعقلون** ﴾ ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليـه مـن الجنـون ، بل اهتم بـالأهم وهـو ربوبيـة الله سـبحانه ، فذكـر شـاهدين آخريـن أوضـح مـن الأول ، لأن المشـرق والمغـرب آيتـان عظيمتان لا يقدر فرعون علـى ادعائـهما .

وفى ختم الآية بقوله : ﴿ **إن كنتم تعقلون** ﴾ دفع لرميه عليـه السلام بالجنون وإثبات عدم العقل لفرعون ومن معه .

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢٧ .

قال الشوكانى : " أى : إن كنت يا فرعون ومن معك من العقـــلاء عرفت وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك إلا ما ذكرتُ لك " [1].

ولما انقطعت حجة اللعين رجـــع إلــى الاســتعلاء والتغلــب فـــ ﴿ **قَـالَ لَئِـنْ اتَّخَـذْتَ إِلَـهًا غَـيْرِي لأَجْعَلَنَّـــكَ مِـــنْ الْمَسْـــــــجُونِينَ** ﴾ [2].

ومن ثم فقد أنهى فرعون الحوار مع موســى عليــه الســلام بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح ، الذى يعتمد عليه الطغاة عندمـــا يسقط فى أيديهم وتخذلهم البراهين ، بأن يجعله فى عداد المســجونين ، وكان سجن فرعون أشد من القتل ، لأنه إذا سجن أحداً لم يخرجـــه حتى يموت .

هذه هى الحجة وهذا هو دليل العجز ، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق . وتلك سمة الطغاة وطريقهم .

غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه ، فـــأرخى عنـــان المناظرة معه ، مريدا فتح الصفحة التى أراد فرعون أن يغلقهاوذلك بأن يقهره بالحجة الحسية ، وهى إظهار المعجزة ، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة :

فـــ ﴿ **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ** ﴾ [3].

---

(١) فتح القدير ٩٨/٤ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٩ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٣٠ .

أى : أتجعلنى من المسجونين ولو جئتك بشئ يتبين به صدقى ويظهر عنده صحة دعواى ٠

وفى هذا احراج لفرعون أمام الملأ ، لأنه لو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته ٠ ومن ثم وجد نفسه مضطرا أن يطلب منه الدليل :

فـ ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ [(١)] فى دعواك الرسالة من رب العالمين ٠

هنا كشف موسى عن معجزتيه المادتين ، وقد أخرهما حتى بلغ التحدى من فرعون أقصاه ٠

﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ آيتان عظيمتان فى انقلاب أعيانهما ٠

فلما أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها ، أسرع يقاومها ويدفعها ، ويكاد يتملق القوم من حوله ، ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه :

فـ **﴿ قال للملأ من حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾** ٠

قال الفخر الرازى : " ٠٠٠ أراد فرعون تعمية هذه الحجة ــ العصا واليد ــ على قومه فذكر فيها أمورا ثلاثة :

---

(١) سورة الشعراء الآية ٣١ ٠

" **أحدها** " قوله : ﴿ **إن هذا لساحر عليم** ﴾ وذلك لأن الزمان كان زمان السحرة وكان عند كثير منهم أن الساحر قد يجوز أن ينتهى بسحره إلى هذا الحد ، فلهذا روج عليهم هذا القول .

" **وثانيها** " قوله : ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره** ﴾ وهذا يجرى مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله ، والمعنى : يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ، ومعلوم أن مفارقة الوطن أصعب الأمور فنفرهم عنه بذلك ، وهذا نهاية ما يفعله المبطل فى التنفير عن المحق .

" **وثالثها** " قوله : ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ أى : فما رأيكم فيه ، وما الذى أعمله ، يُظهر من نفسه أنى متَّبع لرأيكم ومنقاد لقولكم ، ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو " [(١)].

وفى قوله : ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ قال الشيخ سيد قطب : " ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون !

تلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم . عندئذ يلينون فى القول بعد التجبر . ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام . ويتظاهرون بالشورى فى الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى . ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم جبابرة مستبدون ظالمون ! " [(٢)].

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٤ / ١٣٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ١٣٢/٢٤ .

فأشار عليه الملأ بأن يلقى سحره بسحر مثله ، بعـــد التهيئـــة والاستعداد .

﴿ **قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٣٦)يَـــأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ(٣٧)** ﴾ [١].

قال الفخر الرازى : " اعلم أن القـــوم لمـــا أشـــاروا بتـــأخير أمره وبأن يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهـــم فســـاد قـــول موسى عليه السلام ، رضى فرعـــون بمـــا قـــالوه وعمـــى عمـــا شاهده ، وحب الشئ يعمى ويصـــم . فجمـــع الســـحرة ثـــم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيد لهم ليكون ذلـــك بمحضـــر الخلـــق العظيم ، وكان موسى عليه السلام يطلـــب ذلـــك لتظـــهر حجتـــه عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضا مـــن لطـــف الله تعـــالى فى ظهور أمر موسى عليـــه الســـلام " [٢].

فكانت حجة الله هى الغالبة ، وحجة الكافرين هـــى الداحضـــة خاصة عندما آمن السحرة بالله وسجدوا له ، وأجابوا دعوة موســـى وقبلوا نبوته و ﴿ **قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهـــارون** ﴾ وفيه تبكيت لفرعون بأنه ليس برب ، وأن الرب فى الحقيقة هـــو الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ١٣٣/٢٤ .

ومن لطائف أجوبة موسى ـ عليه السلام ـ الجدلية لما قال له فرعون : ﴿ **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** ﴾ (١).

كان جواب موسى عليه السلام : ﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ (٢) أى : ذللتهم واتخذتهم عبيدا !٠

قال الألوسى : " والمعنى تعبيدك بنى اسرائيل نعمة تمنها علىَّ !

وحاصل الرد : انكار ما امتن به أيضا ٠ ويريد حمل الكلام على رد كون ذلك نعمة فى الحقيقة ، قراءة الضحاك " وتلك نعمة ما لك أن تمنها علىَّ " وإلى ذلك ذهب قتادة وكذا الأخفش ٠٠ إلا أنهما قالا : بتقدير همزة الاستفهام للانكار بعد الواو ، والأصل وأتلك نعمة ٠٠ " (٣).

فالذى اعتدَّه فرعون نعمة جعلها موسى نقمة ، وهو جواب على معنى الكلام لا على لفظه ٠

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٨ ٠

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٢ ٠

(٣) تفسير الألوسى ١٩/٧٠ ٠

رابعا : مجادلة عيسى عليه السلام لقومه

نسبه عليه السلام :

هو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، وهو آخر أنبياء بنى اسرائيل اسمه " عيسى " ولقبه " المسيح " ويكنى " ابن مريم " نسبه إلى أمه مريم بنت عمران ، لأنه ولد من غير أب .

وهو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء ، الطاهرة العفيفة التى أحصنت فرجها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (١).

وهو آخر الأنبياء من بنى اسرائيل ، كما أن محمدا هو آخر الرسل جميعا لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

البشارة بالسيد المسيح :

نشأت مريم عليها السلام نشأة طهر وعفاف ، وقد جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، فاتخذت لها محرابا ، وهو المكان الشريف من المسجد ، مكلوءة بعناية الله ، محروسة بحراسته ورعايته ، وكانت الملائكة تأتى إلى مريم فتخبرها بمقامها السامى

---

(١) سورة التحريم الآية ١٢ .

الرفيع عند الله ، وتبشرها باصطفاء الله لها من بين سائر النســـاء ، قال تعالى :

﴿ إذ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ(٤٢)يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَـــعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣)﴾ [١].

وبينما هى يوما قد خرجت من المحراب لبعض شئونها **﴿ وانتبــذت ﴾** أى : انفردت وحدها شرقى المسجد الأقصى ، إذ بعث الله إليها الــروح الآمين جبريل عليه السلام ... ، يقول تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَـــمَ إِذْ انتَبَــذَتْ مِـــنْ أَهْلِــهَا مَكَانًـــا شَرْقِيًّا(١٦)فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّـــلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا(١٧)قَالَتْ إِنِّــي أَعُــوذُ بِــالرَّحْمَنِ مِنْــكَ إِنْ كُنــتَ تَقِيًّا(١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا(١٩)قَــالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا(٢٠)﴾ [٢].

قال أبو حيان : " إنما مثل لها فى صورة الإنســـان لتســتأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها فى الصورة الملكية لنفرت ولـــم تقدر على استماع كلامه ، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت به من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن وكان تمثله على تلك الصفـة ابتلاء لها وسبراً لعفتها " [٣].

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سورة مريم الآيات ١٦ ــ ١٩ .

(٣) البحر المحيط ٧/٢٤٨ .

عندئذ تعجبت من قوله حين بشرها بالغلام ؛ فهى امرأة بكر لم تتزوج ، ولم يقربها أحد من الرجال ، فكيف يمكن أن يأتيها غلام مع عدم اتصال رجل بها : ﴿ **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا** ﴾ (١) ، أى : ولم أكن زانية ٠

وقد كان جوابه لها أنها إرادة الله ومشيئته ، فهو جل ثناؤه لا يعجزه شئ وإذا أراد أمرا فإنما يقول له كن فيكون :

﴿ **قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا** ﴾ (٢).

ولادة السيد المسيح :

قال الله تعالى : ﴿ **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا(٢٢)فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا(٢٣)فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(٢٤)وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(٢٥)فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا(٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(٢٧)يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ**

---

(١) سورة مريم الآية ٢٠ ٠

(٢) سورة مريم الآية ٢١ ٠

أَبُوك امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا(٢٨)فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا(٢٩)﴾ [(١)] .

" **وقد اختلف العلماء فى مدة حملها** ، فقيل : إنها كانت تسعة أشهر كما فى سائر النساء ، وقيل : ثمانية أشهر ، وقيل : سبعة أشهر ، وقيل : ستة أشهر ، وقيل : ثلاث ساعات ، وقال ابن عباس : رضى الله عنهما : كانت مدة الحمل ساعة واحدة .

واستدل الفخر الرازى على قول ابن عباس بوجهين :

الأول : قوله تعالى : ﴿ **فحملته فانتبذت به فأجاءها المخاض فناداها من تحتها** ﴾ والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاءات على أن كل واحد من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة .

الثانى : أن الله تعالى قال فى وصفه ﴿ **إن مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ [(٢)] فثبت أن عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى ﴿ **كن فيكون** ﴾ وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل ، وإنما تعقل تلك المدة فى حق من يتولد من النطفة " [(٣)].

---

(١) سورة مريم الآيات ٢٢ ــ ٢٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ٢٠٢/٢١ بتصرف .

تبرئته لأمه مما نسبه إليها الجاهلون :

لما أتهمها الجاهلون بالزنا ﴿ **فأشارت إليه** ﴾ أى : خـــاطبوه وكلموه فــ ﴿ **قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ [1] حينئــذ ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(٣٠)وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْــتُ حَيًّــا(٣١)وَبَــرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(٣٢)وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(٣٣)** ﴾ [2].

قال ابن كثير : " هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم ، فكان أول ما تكلم به أن ﴿ **قال إنى عبد الله** ﴾ اعـــترف لربـــه تعـــالى بالعبودية ، وان الله ربه ، فنزه جناب الله عن قول الظـــالمين فـــى زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برأ أمـــه مما نسبه إليها الجاهلون ، وقذفوها به ورموها بسببه " [3].

وقال الألوسى : " ذكر عبوديته لله تعالى أولا ، لأن الاعـترا ف بذلك على ما قيل أول مقامات السالكين ٠ وفيه رد على من يزعـــم ربوبيته ، وفى جميع ما قال تنبيه على براءة أمـــه لدلالتـــه علـــى الاصطفاء والله سبحانه أجل من أن يصطفى ولد الزنا وذلـــك مـــن

---

(١) سورة مريم الآية ٢٩ ٠

(٢) سورة مريم الآيات ٣٠ ــ ٣٣ ٠

(٣) قصص الأنبياء ص ٥١٧ ٠

المسلمات عندهم ، وفيه من اجلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح ، وقيل : لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاه " (١).

وذكر وهب بن منبه : أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك ، حتى كشف لهم ابليس أمر عيسى ، فوجدوه في حجر أمه والملائكة محدقة به ، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء ، وان ملك الفرس أشفق من ظهوره ، فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا : هذا لمولد عظيم في الأرض ، فبعث رسله ٠٠٠فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى بن مريم ببيت المقدس ، واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد ، فأرسلهم إليه ٠٠٠ وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه ، فلما وصلوا إلى مريم ٠٠٠ ورجعوا ، قيل لها : إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك ، فاحتملته فذهبت به إلى مصر ، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتى عشرة سنة ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره " (٢).

مجادلة عيسى للعلماء :

وكان عيسى حينئذ قد بلغ من العمر سبع سنين ، فرجع من مصر ووصل إلى الجليل ، وأقام في الناصرة ، وإلى الناصرة

---

(١) روح المعاني للألوسي ٨٩/١٦ ٠

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٥٢٧ بتصرف ٠

ينسب " النصارى " ونما الصبى فى النعمة والحكمة أمام الله والناس ، ولما بلغ اثنتى عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف النجار إلى " أورشليم " يعنى بيت المقدس ليسجد هناك حسب شريعة الرب ، المكتوبة فى توراة موسى عليه السلام ، ولما تمت صلواته تفقدوه فلم يجدوه فانصرفوا إلى محل إقامتهم ظنا منهم أنه عاد إلى الوطن مع أقربائهم ، فلم يجدوه فرجعت أمه مع ابن عمها يوسف النجار إلى " أورشليم " ينشدانه بين الأقرباء والجيران فلم يجدوه ، وفى اليوم الثالث وجدوا عيسى فى الهيكل وسط العلماء يحاجّهم فى أمر الناموس ، وقد أعجب كل الناس بأسئلته وأجوبته ، وقالوا : كيف أُوتى مثل هذا العلم وهو حدث لم يتعلم القراءة ؟ ! فلما رأته أمه عنَّفته قائلة : ماذا فعلت بنا فقد نشدناك ثلاثة أيام ، فأجابها ألا تعلمين أن خدمة الله يجب أن تقدم على الأم والأب ، ثم نزل معها الناصرة [١].

مجادلة عيسى عليه السلام لقومه :

قام المسيح عيسى ابن مريم يدعو الناس إلى دين الحق الذى أوحاه الله إليه ، فى مجتمع يهودى دخلت فيه انحرافات كثيرة ، وخرافات وأباطيل ، بسبب تمردهم وطغيانهم على الشريعة الربانية التى أنزلها الله على موسى عليه السلام ... وكان بنو اسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وحرفوا شريعة الله ، وتلاعبوا

(١) نقلا عن إنجيل "متى" و " برنابا "

بنصوص التوراة ، فبعث الله إليهم عيسى ابن مريم لـــيردهم إلـــى الجادة ، ويصحح ما دخل إلى شريعتهم من تحريف وتبديل ، فقـــام صلوات الله عليه يبلغهم أوامر الله ، ويعلمهم ما أنزل عليـــه مـــن أحكام تشريعية جديدة ، منها تحليل بعض ما كان قد حرم عليهم فى شريعة موسى ــ عليه السلام ــ بسبب بغيهم وعدوانـــهم ، والتـــى كانت عقوبة لليهود فى ذلك الحين ، ويبين لهم المهمة التى بعث من أجلها : ﴿ **وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّـــهَ وَأَطِيعُونِـــي(٥٠)إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٥١)** ﴾ [١].

وقد لقى عليه السلام من اليهود تعنتا واستكبارا ، ولاقى أثنـــاء دعوته أهوالا وشدائد وخاصة من الكهنة ورؤساء الدين ، فـــاصطدم معهم بجدال عنيف ، حول مفاهيم الدين ، وأصول الشـــريعة التـــى جاء بها من قبله موسى عليه السلام ، والتى حرفها أولئك الظالمون المجرمون ، من كهنة ، وكتبة وغيرهم ، فيدحضهم بالحجج الدامغـــة ، والبراهين القاطعة ، ولبث عليه السلام يجاهر بدعوتـــه ، ويجـــادل المنحرفين ، ويدلهم على الله ، ويـــأمرهم بالاســـتقامة ، ويفضـــح رياءهم وخبثهم .

لم يقع جدل حول نبوة أحد من الرسل كما وقع حول نبوة السيد المسيح عليه السلام ، فاضطرب أهل الكتاب بين افراط وتفريـــط .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٥٠ ، ٥١ .

فاليهود ادعوا أنه " ابن زنى " لأن الولد لابد أن يكون له أب ٠ والنصارى ادعوا أنه " ابن الله " لأنه خلق من روح الله ، وروح الله جزء من الإله فلابد أن يكون ابن الله ٠

والحقيقة هى ما قررها القرآن الكريم ، وهو أنه رسول من الرسل الكرام بعثه الله إلى بنى اسرائيل بالهدى والبينات ، وأمه هى الصديقة العفيفة التى أحصنت فرجها قال تعالى :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١)٠

قال الطبرى : " هذا من الله تعالى ذكره احتجاجا على فرق النصارى فى قولهم فى المسيح ، يقول مكذبا لليعقوبية فى قيلهم : هو الله ، والآخرون فى قيلهم : هو ابن الله ٠ ليس القول كما قال هؤلاء الكفرة فى المسيح ولكنه رسول كسائر رسله الذين كانوا قبله فمضوا وخلوا ، أجرى على يده ما شاء أن يجريه عليها من الآيات والعبر حجة على صدقه وعلى أنه لله رسول إلى من أرسله إليه من خلقه كما أجرى على أيدى من قبله من الرسل من الآيات والعبر حجة لهم على حقيقة صدقهم فى أنهم لله رسل ٠

وقوله : ﴿ **كانا يأكلان الطعام** ﴾ خبر من الله ــ تعالى ذكره ــ عن المسيح وأمه أنهما كان أهل حاجة إلى ما يغذوهما وتقوم به

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٥ ٠

أبدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بنى آدم فإن من كان كذلك فغير كائن إلها لأن المحتاج إلى الغذاء قوامه بغيره ، وفى قوامه بغيره وحاجته إلى ما يقيمه دليل واضح على عجزه ، والعاجز لا يكون إلا مربوبا لا ربا " [١].

وقد أيده الله تعالى بحجج قوية ، وبراهين واضحة ، ومعجزات حسية ، مع كل هذا رموه بالسحر يقول تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ(١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ(١١١)﴾ [٢].

ومن الحجج والبراهين التى أيده بها الله تعالى إنزال مائدة من السماء عليهم ، عندما سألوا ذلك من عيسى ، ليأكلوا منها ، وتطمئن قلوبهم ، وتكون لهم عيدا يفطرون عليها يوم فطرهم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم ولغنيهم وفقيرهم ،قال تعالى :

---

(١) تفسير الطبرى ٢٠٣/٦ .

(٢) سورة المائدة الآيتان ١١٠ ، ١١١ .

﴿إذ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَم هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(١١٢)قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ الشَّاهِدِينَ(١١٣)قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ(١١٥)﴾ (١).

قال القرطبى : " اختلف العلماء فى المائدة هل نزلت أم لا ؟

فالذى عليه الجمهور ــ وهو الحق ــ نزولها ؛ لقوله تعالى : **﴿ إنى منزلها عليكم ﴾** . وقال مجاهد : ما نزلت وإنما هو ضربُ مثل ضربه الله تعالى لخلقه فنهاهم عن مسألة الآيات لأنبيائه . وقيل : وعدهم بالإجابة فلما قال لهم : **﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾** ــ الآية ــ استعفوا منها ، واستغفروا الله ، وقالوا : لا نريد هذا ؛ قاله الحسن .

وأضاف القرطبى : وهذا القول والذى قبله خطأ ، والصواب أنها نزلت .

واستشهد بقول ابن عباس : إن عيسى ابن مريم قال لبنى اسرائيل : " صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يُعْطِكم "

---

(١) سورة المائدة الآيات ١١٢ ــ ١١٥ .

فصاموا ثلاثين يوما وقالوا : يا عيسى لو عملنا لأحد فقضينا عملنا لأطعمنا ، وإنا صمنا وجعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها ، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ، فوضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم " (١).

لقد حاج عيسى ــ عليه السلام ــ قومه كثيرا ليثبت لهم أنه مرسل إليهم من الله ، وأنه مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعا من تقدم منهم ومن تأخر ، وبشرهم برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، قال تعالى :

﴿ وإذ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٢).

ولكن هيهات . هيهات لقوم قلوبهم كالحجارة بل أشد قسوة منها ، فقد عصوه وكذبوه ولم يمتثلوا أمره ، وقرروا التخلص منه بالقتل والصلب ، على طريقتهم التى كانوا يفعلونها فيمن يحكمون عليه بالقتل .

---

(١) تفسير القرطبى ٢٣٨/٦ .

(٢) سورة الصف الآية ٦ .

فأخبر الله تعالى أنه رفعه إلى السماء وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود ، الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة فى ذلك الزمان ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٥٤)إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٥٥)﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا(١٥٥)وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا(١٥٦)وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا(١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(١٥٨)وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا(١٥٩)﴾ (٢).

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) سورة النساء الآيات ١٥٥ ــ ١٥٩ .

ولم تنته مهمة السـيد المسيح ــ عليه السلام ــ بعد ؛ سينزل إلى الأرض ليتمم رسالته ويبلغ دعوته ، فهو الآن حى فى السماء ، رفعه الله إليه بروحه وجسده ، وقد أخبر سيدنا محمد ﷺ عن ذلك :

أخرج البخارى عن أبى هريرة ﷺ قال : " قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ــ ويضع الحرب ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها • ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم " وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا " (١) وسيحكم بشريعة القرآن فلا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فصلوات ربى وسلامه عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين •

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه • كتاب الأنبياء • باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام ٣٠٢/٧ ــ ٣٠٣ فتح البارى •

خامسا : جدال رسول الله ﷺ لكفار قريش وأهل الكتاب

لقد جابه رسول الله ﷺ ثلاث جبهات :

الجبهة الأولى : هم مشركو قريش ، وكان كفرهم فى القمة .

الجبهة الثانية : هى جبهة اليهود والنصارى وتجمعهم معا لأنهم أهل كتاب .

الجبهة الثالثة : هى جبهة المنافقين .

والمحاجة قد أتت من الجبهة الثانية ، لأن كفار قريش لم يدَّعوا أن عندهم دينا قد نزل من السماء ، أما أهل الكتاب فهم يدَّعون أن عندهم دينا منزلا من السماء ، وعندما يناطح الشرك دينا فهذا أمر معقول ، أما أن يناطح أهل دين نزل من السماء رسولا جاء بدين خاتم من السماء فهذا أمر يستحق أن نقف عنده .

وما دام هناك جدال بين حق وبين باطل ، فإن الله تعالى لم يترك الرسول ﷺ ، بل سلَّحه بالحجة الدامغة ، يقول تعالى : ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ** ﴾ (١) أى : إن جادلوك وناقشوك فى أمر الإسلام الذى جئت به كدين خاتم مناقض لوثنية أو شرك قريش ، ومناقض لما قام أهل الكتاب بتغييره من مراد الله فقل يا محمد :

---

(١) سورة آل عمران من الآية ٢٠ .

﴿ أسلمت وجهى لله ﴾ وهى تعنى أن أشرف شئ فى الإنسان قد خضع للحق ، وقد يكون المراد : أسلمت ذاتى بكل ما أوتيت الذات من جوارح ومن أعضاء .

ومن نماذج محاجة الرسول ﷺ لأهل الكتاب :

١ ــ قوله تعالى : **﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٥٩)الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٦٠)فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ(٦١)إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦٢)فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ(٦٣)﴾** [١].

ورد فى سبب نزول صدر هذه الآيات عن ابن عباس قال : " إن رهطا من نجران قدموا على النبى ﷺ ، وكان فيهم السيد والعاقب ، فقالوا : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ قال : من هو ؟ قالوا : عيسى تزعم أنه عبد الله ، فقال : أجل ، فقالوا : فهل رأيت مثل عيسى أو أُنبِئْتَ به ؟ ثم خرجوا من عنده ، فجاء جبريل فقال : قل لهم إذا أتوك **﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم .. إلى قوله : من الممترين ﴾** [٢].

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٥٩ ــ ٦٣ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣/٢٠٧ .

" وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن الأزرق بن قيس قال : قدم على رسول الله ﷺ أسقف نجران والعاقب ، فعرض عليهما الإسلام فقالا : إنا كنا مسلمين قبلك ، قال : كذبتما ، إنه منع منكما الإسلام ثلاث . قولكما : إتخذ الله ولدا ، وأكلكما لحم الخنزير ، وسجودكما للصنم ، قالا : فمن أبو عيسى ؟ فما درى رسول الله ﷺ ما يرد عليهما حتى أنزل الله ﴿ **إن مثل عيسى عند الله** ... إلى قوله ... **وإن الله لهو العزيز الحكيم** ﴾ فدعاهما إلى الملاعنة فأبيا وأقرّا بالجزية ورجعا [1].

لقد جاء القول الفصل بالحجة الأقوى ، فإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء بدون أب ، فإن آدم ـ عليه السلام ـ قد جاء بدون أب ، وبدون أم ، فقد أقام الحجة على بطلان دعواهم بأمر يشتمل على شبهتهم وزيادة ، فإن آدم وجد من غير أم ولا أب ولم يقولوا بألوهيته ، وشبهتهم فى عيسى أنه وجد من أم بلا أب .

إنه صراع قضية حق مع قضية باطل ، أى إن طرفا واحدا على هدى ، والطرف الآخر على ضلال مبين . فالقضيتان متناقضتان ، ولا يمكن أن يجتمعا ، قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ [2].

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ٥٣ .

(٢) سورة سبأ من الآية ٢٤ .

لقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يجتمع بهم فى مكان ظـــاهر ، ويدعوا الطرفان الأبناء والنساء ، ويبتهل الجميع إلى الله الحـــق أن تنزل لعنة الله على الكاذبين .

فمن يرد أن يحتكم إلى أحـــد فليقبـــل الاحتكـــام إلـــى الإلـــه العادل الذى لن يحكم بالباطل أبدا ، الذى جاء بـــالقول الفصـــل إلـــى رسوله ﷺ فقال : ﴿ **فمن حاجك فيه مـــن بعـــد مـــا جـــاءك مـــن العلم فقل تعـــالوا نـــدع أبناءنـــا وأبنـــاءكم ونســـاءنا ونســـاءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنـــة الله علـــى الكـــاذبين** ﴾ .

حينئذ أخبرهم الرسول ﷺ بالأمر المنزل من عنـــد الله بدعـــوة الأبناء والنساء والأنفس ، لكنهم قالوا للرسول ﷺ : أَنْظِرْنا إلى الغد ونأتى إليك " .

ثم أرسلوا فى الصباح واحدا منهم ليرى مـــاذا فعـــل رســـول الله ﷺ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة ، أو هـــو مجـــرد قـــول منه أراد به التهديد فقـــط ؟ ووجـــد رســـولهم أن رســـول الله ﷺ قد جاء ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلـــى بـــن أبـــى طـــالب ــ رضى الله عنـــهم أجمعيـــن ــ لذلـــك قـــالوا : " لا لـــن نســـتطيع المباهلة " ، والله مـــا بـــاهل قـــوم نبيـــا إلا أُخـــذوا ، وحـــاولوا ترضية رســـول الله ﷺ ، وقـــالوا : لنظـــل علـــى ديننـــا ويظـــل محمد وأتباعه على دينـــه .

لقد ظنوا أن الدعوة إلى المباهلة هى مجرد تهديد لن ينفذه الرسول ، لكن صاحب الحجة القوية واليقين الصادق جاء ومعه أهله استعدادا للمباهلة ، وقد رجعوا عن المباهلة ، وقالوا للرسول ﷺ : لنتفق معا ألا تغزونا أو تخيفنا على أن نرسل لك الجزية فى رجب وفى صفر [1].

قال الشيخ محمد متولى ـ رحمه الله ـ : " وقد يسأل سائل : ولماذا تكون الدعوة للأبناء والنساء ؟ والإجابة هى : أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التى تهم كل إنسان ، وإن لم يكن رسولا ، إنهم بضعة من نفسه وأهله ٠ فكان الرسول ﷺ مأمور بأن يقول لهم : " هاتوا أحبابكم من الأبناء والنساء لأنهم أعزة الأهل وألصقهم بالقلوب وادخلوا معنا فى مباهلة ٠

" والمباهلة " هى التضرع فى الدعاء لاستنزال اللعنة على الكاذب ، فالبهلة ـ بضم الباء ـ هى اللعنة ، وعندما يقول الطرفان : " يارب لتنزل لعنتك على الكذاب منا " فهذا دعاء يحمل مطلق العدالة ، فالإله الذى يستطيع أن ينزل اللعنة هو الإله الحق ٠ وهو سيُنزّل اللعنة على من يشركون به ، ولو كانت اللعنة تنزل من الآلهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله الواحد ٠

---

(١) راجع تفسير الطبرى ٣/٢١٠ ـ ٢١١ ، وتفسير الألوسى ٣/١٨٨ ـ ١٩٠ وتفسير ابن كثير ١/٣٤٨ ـ ٣٤٩ ، وتفسير الفخر الرازى ٨/٨٠ وفتح القدير للشوكانى ١/٣٤٧ ـ ٣٤٨ ٠

ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة والبهلة ـ كما قلنا ـ هى ضراعة إلى القوة القاهرة التى تتصرف فى الأمر لتنتهى الخلاف " [1].

وقد أثار بعض المستشرقين شبهات سوفسطائية حول القرآن بأنه يحيد عن الجدل العقلى والنقاش الفكرى كلجوئه إلى المباهلة فى هذه الآية ﴿ **فمن حاجك ..** ﴾ .

والحقيقة أن القرآن قد جادلهم وناظرهم قبل المباهلة فلما أصبحوا فى حالة من العناد والمكابرة لا يجدى معهم فيها نقاش أو جدال ، لجأ إلى أسلوب آخر هو أسلوب التخويف من غضب الله وانتقامه من الضالين المكذبين ، ونأخذ من الآية نفسها دليلا على تقدم الجدال والمحاجة معهم وهو قوله تعالى : ﴿ **من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ ، وقد ناظرهم قبل ذلك بقوله : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ ، أيضا نقض قولهم بألوهية عيسى بقوله تعالى : ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ [2]. ، فهل من يأكل الطعام ويتركب جسمه ثم يتحلل يكون إلها ؟ وهكذا يظهر لنا أن المباهلة كانت فى آخر أيام الدعوة .

---

(1) تفسير الشعراوى ١٥٢٩/١٩ طبعة دار أخبار اليوم .

(2) سورة المائدة الآية ٧٥ .

٢ ـ أيضا من نماذج جدال الرسول لأهل الكتاب :

قوله تعالى : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ(٦٥)هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٦٦)مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(٦٧) ﴾ [١].

أخرج ابن جرير الطبرى عن ابن عباس قال : " اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان ابراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان ابراهيم إلا نصرانيا فأنزل الله عز وجل فيهم **﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾** " [٢].

فقد أبهتهم القرآن على لسان محمد ﷺ بالحجج العقلية الواقعية وبسؤالهم عدة أسئلة لا يستطيعون الإجابة عنها إلا بالإقرار فى أنفسهم مكابرة منهم ، فقال لهم :

لماذا يكون جدالكم فى ابراهيم خليل الله ؟ إن اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى ، والنصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٦٥ ـ ٦٧ .

(٢) تفسير الطبرى ٢١٦/٣ .

عيسى ، وابراهيم ـ عليه السلام ـ لا يمكن أن يكون يهوديا كما يدعى اليهود ؛ فاليهودية قد جاءت من بعد ابراهيم والنصارى لا يمكنهم الادعاء بأن ابراهيم كان نصرانيا ؛ لأن النصارانية قد جاءت من بعد ابراهيم ـ عليه السلام ـ ، فلم المحاجة إذن ؟ لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد ابراهيم فكيف يكون تابعا للتوراة والإنجيل ؟

ثم أبكتهم بسؤال آخر أشار فى مقدمته إلى جهلهم وحماقتهم فى دعواهم فقال :

" هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم " أى : فى أمر عيسى ـ عليه السلام ـ وادعائكم بألوهيته ، أو بقولكم إنه دعيّ كذاب ، وقد قامت عليكم الحجة ، ولم يكن علمكم بما فى كتبكم وما أنزل إليكم بمانع لكم من الخطأ .

﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون ﴾ أى : أتريدون أن تأخذوا الجدل على أنه باب مفتوح ، تجادلوا فى كل شئ ، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الله تعالى علام الغيوب .

ثم أكد كذبهم ومجادلتهم الباطلة فقال :

﴿ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾

قال الطبرى : " وهذا تكذيب من الله عز وجل دعوى الذين جادلوا فى ابراهيم وملته من اليهود والنصارى وادعوا أنه كان على ملتهم ، وتبرئة لهم منه وأنهم لدينه مخالفون ، وقضاء منه عز وجل لأهل الإسلام ولأمة محمد ﷺ أنهم هم أهل دينه وعلى منهاجه وشرائعه دون سائر أهل الملل والأديان وغيرهم "[1].

فلو لم تكن اليهودية قد حرفت وبدلت ، وكذلك النصرانية لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة ابراهيم ؛ لأن الأديان لا تختلف فى أصولها ، ولكن قد تختلف فى بعض التشريعات المناسبة للعصور ، ولذلك فسيدنا ابراهيم ــ عليه السلام ــ لا يمكن أن يكون يهوديا باعتبار التحريف الذى حدث منهم ، أى لا يكون موافقا لهم فى عقيدتهم ، وكذلك لا يمكن أن يكون نصرانيا للأسباب نفسها ، لكنه ﴿ **كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** ﴾ أى : أنه مائل عن طريق الإعوجاج .

بهذا فقد ألقم الحجر فى أفواه اليهود والنصار الذين جادلوا فى ابراهيم ــ عليه السلام ــ ، وأثبت لهم أنهم كاذبون فى دعواهم ، وأن الصادقين هم أهل الإسلام ، فإنهم وحدهم أهل دينه وعلى منهاجه وشريعته دون سائر الملل الأخرى .

(١) تفسير الطبرى ٢١٧/٣ .

٣ ـ أيضا من نماذج جدال الرسول ﷺ لليهود قوله تعالى :

﴿ قل إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(٩٤)وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٩٥) ﴾ [١] أى : إن صدق قولكم ، وصحت دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا ، وفى أنكم شعب الله المختار ، وأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودات ، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم الذى لا ينازعكم فيه أحد .

قال ابن جرير الطبرى : " وهذه الآية مما احتج الله بها لنبيه محمد ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجره ، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم وذلك أن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم فيما كان بينه وبينهم من الخلاف كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه فى عيسى صلوات الله عليه وجادلوا فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة ، وقال لفريق اليهود إن كنتم محقين فتمنوا الموت ، فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله ، بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر

(١) سورة البقرة الآية ٩٤ .

عيشتها ، والفوز بجوار الله فى جنانه إن كان الأمر كما تزعمون من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا ، وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون فى دعوانا وانكشف أمرنا وأمركم لهم ، فامتنعت اليهود من إجابة النبى ﷺ إلى ذلك لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكت فذهبت دنياها وصارت إلى خزى الأبد فى آخرتها ، كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبى ﷺ فى عيسى ، ـ إذ دعوا إلى المباهلة ـ من المباهلة فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : لو أن اليهود تمنوا الموت ، لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا " [1].

وهذا دليل واضح وحجة قاطعة على اليهود فلو لم يعلموا أنهم إن تمنوه ماتوا وإلا كانوا تمنوه فيحاجوا به رسول الله ﷺ ويبطلوا نبوته . وكان ذلك أهم الأشياء عندهم .

وشبيه بالدليل السابق أيضا قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦)وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٧)** ﴾ [2].

---

(١) تفسير الطبرى ٣٣٦/١ .

(٢) سورة الجمعة الآيتان ٦ ، ٧ .

فلو لم يعلموا أنه رسول الله وأن خبره حق وصدق لبادروا إلى ما يبطل دعواه ويكذب خبره .

٤ ـ نموذج آخر على جدال الرسول ﷺ لليهود .

قوله تعالى : **﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٩٣)فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ(٩٤)﴾** [١] .

قال الشيخ المراغى : " أى : إن كل الطعام كان حلالا لبنى اسرائيل ـ ولإبراهيم من قبله ، ثم حرم عليهم بعض الطيبات فى التوراة عقوبة لهم وتأديبا كما يدل على ذلك قوله : **﴿ فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾** [٢].

والمراد بإسرائيل : الشعب كله كما هو شائع فى الاستعمال عندهم لا يعقوب فحسب ..

ومعنى قوله : **﴿ من قبل أن تنزل التوراة ﴾** ، أنه قبل نزول التوراة كان حلا لبنى اسرائيل كل أنواع المطعومات ؛ أما بعد نزولها ، فقد حرم عليهم أنواع كثيرة بسبب الذنوب التى اقترفوها ، وقد بينتها التوراة وبينت أسباب التحريم وعلله " [٣].

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) سورة النساء من الآية ١٦٠ .

(٣) تفسير المراغى ٤/٥ .

وقيل المراد بإسرائيل : يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ٠ وأن يعقوب هو الذى حرم على نفسه شيئا من الطعام بسبب مرضه ، أما تحريم ما حرم على بنى إسرائيل فكان بسبب ظلمهم وبغيهم ٠

قال الزمخشرى : " والذى حرم أسرائيل هو يعقوب عليه على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، وقيل : العروق كان به عرق النسا فنذر إن شفى أن يحرِّم على نفسه أحب الطعام إليه ، وكان ذلك أحب إليه فحرمه ، وقيل : أشارت عليه الأطباء باجتنابه ففعل ذلك بإذن من الله فهو كتحريم الله ابتداء ٠

والمعنى : أن المطاعم كلها لم تزل حلالا لبنى إسرائيل من قبل إنزال التوراة وتحريم ما حرّم عليهم منها لظلمهم وبغيهم لم يحرم منها شئ قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذى حرّمه أبوهم إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه وهو رد على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم بما نعى عليهم فى قوله تعالى : ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُم** ﴾ [1] إلى قوله ﴿ **عذابا أليما** ﴾ ، وفى قوله : ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن**

---

(١) سورة النساء الآيتان ١٦٠ ، ١٦١ وتكملة النص قوله : ﴿ ٠٠ **وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما** ﴾ ٠

البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ إلى قوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ [1].

وجحود ما غاظهم واشمأزوا منه وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم كانت محرمة على نوح وعلى ابراهيم ومن بعده من بنى اسرائيل • وهلم جرا إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل وما عُدد من مساويهم التى كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم [2].

لهذا فقد أمر الله سبحانه أن يبهتهم بالحجة الدامغة ، وذلك بأن يكون كتابهم "التوراة " دليلا ناطقا على كذبهم فقال :

﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ •

قال أبو السعود : " أمر عليه السلام بأن يحاجهم بكتابهم الناطق بأن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث مترتب على ظلمهم وبغيهم كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم ، ويكلفهم إخراجه وتلاوته ، ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم ••• وقوله : **﴿ إن كنتم صادقين ﴾** أى : فى دعواكم أنه تحريم قديم •

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٦ •

(٢) تفسير الكشاف ٢٠٢/١ •

وأضاف قائلا : روى أنهم لم يجسروا على إخـــراج التـــوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين ، وفى ذلك من الحجة النيرة على صـــدق النبى ﷺ " [1].

وفى هذا أكبر دليل على إثبات نبوة محمد ﷺ ، إذ هو قد علـــم أن ما فى التوراة يدل على كذبهم وهو لم يقرأها ولا قرأ غيرها من كتب الأولين ، فهذا العلم لم يكن إلا بوحى من الله ، وبـــذا قــامت عليهم الحجة ، وثبت صدق الرسول ﷺ .

وبعد ... فهذه نماذج لحجج وجدال أولى العزم من الرسل مع أممهم ذكرها القرآن الكريم ، ليستبين للناس حجج أهل الكتاب ، ويعرفوا مقدار مرائهم وسخفهم فى جدلهم ، وأنهم ضعاف الأحلام قليلوا التبصر فى عواقب ما يقولون .

أسأل الله تعالى أن أكون قد وفيتها حقها ، آملة جمع كل الحجج إن شاء الله تعالى إن كان فى العمر بقية

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

القاهرة : الجمعة ٢٩ ذو القعدة ١٤٢١ هـ
الموافق ٢٤ فبراير ٢٠٠١ م

د . عفاف النجار

(١) تفسير أبى السعود ٢/٥٩ .

فهرس المراجع والمصادر

١ ـ القرآن الكريم ٠

٢ ـ استخراج الجدال فى القرآن الكريم : للإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم ٠ تحقيق د / زاهر عواض الألمعى ٠

٣ ـ البحر المحيط : لأبى حيان ٠ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٩ هـ ٠

٤ ـ البرهان فى علوم القرآن : للزركشى : دار الفكر ٠الطبعة الثالثة ٠

٥ ـ تفسير أبى السعود : لأبى السعود محمد بن محمد العمادى ٠ دار إحياء التراث العربى ٠ بيروت ٠ الطيعة الثانية ٠

٦ ـ تفسير الشيخ الشعراوى ٠ طبعة دار أخبار اليوم ٠

٧ ـ تفسير الفخر الرازى : " التفسير الكبير " للإمام الرازى ٠ دار إحياء التراث العربى ٠ بيروت ٠ الطبعة الثالثة ٠

٨ ـ تفسير القرآن العظيم : لابن كثير ٠ مؤسسة الكتب الثقافية ٠ الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م ٠

٩ ـ تفسير الكشاف : للزمخشرى ٠ المعرفة ـ بيروت ٠

١٠ ـ تفسير المراغى : للأستاذ الكبير المرحوم أحمد مصطفى المراغى ٠

١١ ـ جامع البيان فى تفسير القرآن : لأبى جعفر بن جرير الطبرى ٠ دار الحديث بالقاهرة ٠ ١٤٠٧ هـ ٠

١٢ ـ الجامع لأحكام القرآن : للقرطبى ٠ دار الكتب العلمية ٠ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ٠

١٣ ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : للألوسي ٠
دار إحياء التراث العربي بيروت ٠ الطبعة الرابعة ١٤٠٩ هـ ٠
١٤ ــ سنن أبي داود : دار الفكر العربي ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م ٠
١٥ ــ سنن الترمذي : القاهرة ٠ المكتبة الإسلامية ١٩٦٢ م ٠
١٦ ــ صحيح البخاري : دار إحياء التراث العربي ١٩٥٨ م ٠
١٧ ــ صحيح مسلم : دار إحياء التراث العربي ١٩٥٦ م ٠
١٨ ــ فتح الباري : لابن حجر ٠ مطبعة البابي الحلبي ٠ الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٣ م ٠
١٩ ــ فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم النفس : للإمام الشوكاني دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ٠
٢٠ ــ الفتوحات الإلهية : تأليف سليمان بن عمر العجيل الشهير بالجمل ٠
٢١ ــ في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٠ دار الشروق ٠ الطبعة الرابعة والعشرون ١٤١٥ هـ ــ ١٩٩٥ م ٠
٢٢ ــ قصص الأنبياء : لابن كثير ٠ تحقيق أبي عمار مراد بن عبد الله دار العنان للطباعة الطبعة الثالثة ١٤١٩ هـ ــ ١٩٩٩ م ٠
٢٣ ــ لباب النقول في أسباب النزول : للسيوطي ٠ دار إحياء العلوم ٠ بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ ٠
٢٤ ــ لسان العرب : لابن منظور ٠ دار صادر بيروت ٠
٢٥ ــ معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : للراغب الأصفهاني تحقيق نديم مرعشلي طبعة دار الفكر ، بيروت ــ لبنان ٠

فهرس الموضوعات

أبو عمر للكمبيوتر والتجهيزات الفنية

القاهرة ـ ت / ٥١٠٥٩٨٠

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٣٨٨١ / ٢٠٠١ م

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977- 5819 - 93 - 8